



# فی وادی الخلائق

احسان زحید (افروس)

مکتبه عربیہ

## الفصل الأول

دخل مصطفى الدسوقي إلى فناء كلية الهندسة دون أن ينتزع في  
قلبه أي إحسان بأنه طالب في هذه الكلية . . . ويسير بين الطلبة كأنه  
ليس ساحة فراغ في الفرج عليهم بدلا من أن يقضيها في حديقة  
الحيوان متفرجا على الحيوانات . . . وهو منذ البداية لم يكن مقتنعا بأن  
يكون طالبا في الجامعة . . . إنه ليس في حاجة إلى أي دراسة جامعية  
يشي عليها مستقبله . . . يكفيه دراسة أعمال المقالات التي يقوم بها أبوه  
وتحقق له المال . . . . .  
**في وادي الغلابة** . . . . .  
عمليات المقالات . . . . .  
إن لم يرث عن أبيه عبقريته فيكونه خسرانا مستقبلا أنه سيرث أمواله . . .  
فما حاجته إلى الالتحاق بالجامعة . . . ولكن أباه ظل يضغط عليه حتى  
أجبره على أن يكون طالبا في كلية الهندسة . . . وربما منذ أن أنجبته وهو  
يعده للجامعة ولكلية الهندسة بالذات . . . وكان يقول له دائما أنه يجب  
أن يحمل صفة يقدم بها نفسه ويمش بها بين الناس . . . فقد أصبحت  
الصفة هي اللقب الذي يحمله الفرد . . . وكانت الألقاب زمان تقسم  
الناس إلى . . . أفندي . . . ومك . . . وبلشاش . . . وصاحب مقام  
رفيع . . . ويقاس كل فرد بلقبه . . . ولكن كل هذه الألقاب قد  
انبدلت . . . وانقلبت إلى ألقاب جديدة . . . ضابط . . .  
مهندس . . . دكتور . . . أديب . . . صحفي . . . رجل أعمال . . .  
سياسي . . . . . ولم يعد هذا اللقب يقدره  
مكتبة غريب

## الفصل الأول

دخل مصطفى الدسوقي إلى فناء كلية الهندسة دون أن يختلج في  
كيانه أى إحساس بأنه طالب في هذه الكلية . . ويسير بين الطلبة كأنه  
يقضى ساعة فراغ في التفرج عليهم بدلا من أن يقضيها في حديقة  
الحيوان متفرجا على الحيوانات . . وهو منذ البداية لم يكن مقتنعا بأن  
يكون طالبا في الجامعة . . إنه ليس في حاجة إلى أى دراسة جامعية  
يبني عليها مستقبله ، يكفيه دراسة أعمال المقاولات التى يقوم بها أبوه  
وتحقق له الملايين . . وليس بين كليات الجامعة كلها كلية تدرس أسرار  
عمليات المقاولات . . إنها مهنة تعتمد على العبقريّة الذاتية . . وحتى  
إن لم يرث عن أبيه عبقريته فيكفيه ضمانا لمستقبله أنه سيرث أمواله . .  
فما حاجته إلى الالتحاق بالجامعة . . ولكن أباه ظل يضغط عليه حتى  
أجبره على أن يكون طالبا في كلية الهندسة . . وربما منذ أن أنجبه وهو  
يعده للجامعة ولكلية الهندسة بالذات . . وكان يقول له دائما أنه يجب  
أن يحمل صفة يقدم بها نفسه ويعيش بها بين الناس . . فقد أصبحت  
الصفة هي اللقب الذى يحمله الفرد . . وكانت الألقاب زمان تقسم  
الناس إلى . . أفندى . . وبك . . وباشا . . وصاحب مقام  
رفيع . . ويقاس كل فرد بلقبه . . ولكن كل هذه الألقاب قد  
اندثرت . . وانقلبت إلى ألقاب جديدة . . ضابط . . محام . .  
مهندس . . دكتور . . أديب . . صحفى . . رجل أعمال . .  
سياسى . . و . . و . . ولم يعد هذا اللقب يقوم على العمل الذى

يؤديه الفرد .. أى قد يحمل الفرد لقب مهندس وهو لا يعمل في الهندسة ولكنه متفرغ لعمليات تجارية بعيدة عن الهندسة كأن يكون صاحب شركة تصدير واستيراد .. وقد يحمل لقب دكتور أى طبيب وهو لا يعمل في الطب .. بل يعيش متفرغا للعمل في الصحافة .. أو يحمل لقباً عسكرياً .. لواء .. أميرالاي .. بكباشى .. رغم أنه ابتعد عن الجيش منذ عمر طويل وأصبح سفيرا مثلاً أو مدير شركة أو أصبح وزيراً لوزارة الثقافة .. ولكن كلا منهم يظل حريصاً على اللقب الذى وفرته له دراسته .. ويتفاخر به كصفة من صفاته .. فإذا أعجزه أن يجد لقباً يوفر له صفة ترضيه اغتصب لقب « أستاذ » .. لقد وصل لقب « أستاذ » إلى مستوى لقب « أفندى » القديم يتبادل الناس كمجرد تبادل الاحترام .. دون أن يحمل أى معنى للأستاذية ..

والأب كان مصمماً على أن يحمل ابنه لقب مهندس ..

وقد حاول مصطفى كثيراً أن يعيش الحياة الجامعية .. وكان في أوائل سنوات دراسته يتباهى بأن يخرج كل صباح من البيت وهو يحمل مسطرة الرسم الهندسى الطويلة العريضة .. ويحمل معها عدداً من الكتب الدراسية .. ولكنه بعد أيام قليلة هفت افتخاره بنفسه كطالب جامعى .. وبدأ يضيّق بالجو الجامعى كله .. إنه لا يحس بنفسه وبشخصيته كاملة وباندفاع عقليته للتحصيل إلا عندما يتردد على مكاتب الشركات التى كوّن أبوه .. والتى تجمع عشرات الموظفين بينهم كثير من المهندسين .. وكلهم يرحبون بشخصيته ويحيطونها بالاهمية .. ربما لأنه ابن رضوان الدسوقي صاحب الشركة .. ولكنه وهو في الجامعة يحس أنه في عالم بعيد عنه .. ولا يجد شخصيته بين

الطلبة .. إنهم يعرفونه ولا يعرفون أباه .. ولكنها ليست معرفة عادية .. كأنهم يضعونه في هذا العالم البعيد عنهم .. ولذلك فالتعارف لم يتجاوز تبادل التحية من بعيد أو تبادل عبارات عابرة دون أن تنطور أى معرفة إلى صداقة تحقق أى ارتباط أو متعة المصارحة وانطلاقات الشباب ..

وكان مصطفى قد لاحظ بعض مظاهر الحياة السياسية داخل الجامعة .. إنها حياة أوسع بكثير مما كان قد لاحظها في المدارس الثانوية .. وهى حياة تعبر دائماً عن المعارضة .. يتجمعون في مناقشات سياسية حادة .. وقد يقوم أحدهم خطيباً .. وقد ينقلب تجمعهم إلى مظاهرة ضخمة .. وهو يسائل نفسه دائماً .. لماذا يعارضون ويهاجمون ، ودائماً يجيب نفسه بأن ما يدفعهم إلى كل هذا الغضب هو الحرمان الذى يصل إلى السخط .. السخط على كل شيء .. ماداموا لا يملكون شيئاً .. وهو نفسه قد يكون محروماً من كثير ، على الأقل محروماً من استقرار شخصيته وآماله التى يحددها لمستقبله .. ولكنه ليس ساخطاً .. ربما لأنه يملك .. أو على الأصح لأن أباه يملك .. ولذلك فقد وجد نفسه مبتعداً عن كل مظاهر النشاط السياسى داخل الجامعة .. ووصل به التباعد إلى أنه لم يعد يواظب كل الأيام على التردد على الجامعة .. ولم يعد يعتمد النجاح في كل امتحان .. إنه لا ينجح إلا إذا خطر على باله أن ينجح كأنه يريد أن يثبت لنفسه أنه يستطيع أن يكسب في لعبة كوتشينة أو في دور شطرنج ..

وليس معنى ذلك أن مصطفى لم يكن يفهم في السياسة .. لقد كان يفهم ويستوعب بعض الأوضاع والشئون السياسية وخصوصاً

ما تمس منها أوضاع أبيه .. وعلى قدر ما يمكن ان يفهمه في سنه ..  
ولكن كان واضحاً له أن ما يفهمه يختلف عما يفهمه أغلبية زملائه  
الطلبة في الجامعة .. لذلك فهو منذ البداية ابتعد عن هذه الأغلبية  
حتى لا يعرض نفسه لمعارك معهم .. وهم أغلبية ..

إلى أن وجد نفسه يوماً بالصدفة جالساً في بوفيه الجامعة بين اثنين  
من زملائه يعرفهما ولكنها ليسا أصدقاء .. وكان أحدهما هو محيى  
الدين عبد السلام .. إنه أشهر طالب في الكلية .. يمتد نشاطه إلى  
كل فروعها .. وهو أكثر الطلبة كلاماً وأعلامهم صوتاً .. وكلما وقع  
بمصر حدث أو مرت مناسبة من المناسبات الوطنية تجده واقفاً على أعلى  
السلم المطل على الفناء يلقي خطاباً .. وقد غمر شهور طويلة دون أن  
يقف كخطيب .. ولكنه دائماً بين مجموعات الطلبة .. وقد لا يجتمع  
أربعة إلا وهو خامسهم .. وهو الذى يقود الحديث بينهم في أى  
موضوع .. وقد يمكن اعتباره زعيماً للطلبة .. ولكنها ليست زعامة  
رسمية .. أو زعامة معترفاً بها .. ربما لأنه لم يعرف عنه أنه يمثل أى  
حزب سياسى أو ينتمى إلى أى اتجاه سياسى محدد .. لم يعرف عنه  
أنه شيوعى .. أو من الإخوان المسلمين .. أو وفدى .. أو  
ناصرى .. أو من حزب الحكومة .. أو .. أو .. إلى آخر التنظيمات  
السياسية والدينية .. وهو دائماً يردد أنه مجرد صاحب رأى .. ورأيه  
ينطلق من تقدير الواقع الشعبى .. ويختلف مع كل الأحزاب  
والتنظيمات القائمة في هذا التقدير للواقع الشعبى .. لذلك فإن  
زعامته يمكن أن تعتبر مجرد زعامة شخصية .. تتجمع كل قوتها في  
شخصه .. ولكنه كان يؤكد هذه الزعامة بقدرته على اكتساب صداقة  
عدد هائل من الطلبة .. وهى صداقة قد لا تتجاوز التعرف ولكنها

قادرة على اجتذابهم إلى الالتفاف حوله والاستماع إليه .. وهو الآن  
طالب في السنة النهائية بالكلية أى على وشك التخرج .. ولكنه  
لا يزال قادراً على اكتساب صداقة حتى الطلبة الجدد الداخلين إلى  
الكلية .. وقد حاول أن يكتسب صداقة مصطفى منذ رآه .. ولكن  
لم يقم بينهما سوى التعارف المقصور على تبادل التحية من بعيد .. فقد  
كان مصطفى يمر بمراحل الابتعاد عن الجامعة بكل ما فيها .. حتى  
بما فيها هذا الطالب المتزعم محيى الدين عبد السلام ..

إلى أن كان هذا اليوم الذى وجد مصطفى نفسه في جالساً في  
بوفيه الجامعة مع محيى الدين عبد السلام .. وكان محيى الدين عبد  
السلام كعادته هو الذى يتكلم .. وكان يقول :

— إن كل ما تتخذه الحكومة عبارة عن تنظيمات وإجراءات  
مظهرية لا تغير من الواقع .. تقيم مظاهر ديمقراطية وبحكمها واقع  
ديكتاتورى .. وتقيم مظاهر إنفاذ سياسى تسودها وتولاها نفس  
العقليات التى فرضت واقع الإفلاس الاقتصادى .. وترفع الأجور  
والمرتبات حتى يفرح الفرد بأن يصمك في يده خمسين جنيهاً بدلاً من  
ثلاثين .. وفي الوقت نفسه ترفع الأسعار من ثلاثين إلى ستين ..  
كأنها كلما رفعت من مظهر ارتفاع الدخل الفردى رفعت من واقع  
استنزاف هذا الدخل .. أى أن الفرد الفقير كلما ارتفع دخله ازداد  
فقراً ..

ووجد مصطفى نفسه ينطلق مقادعاً دون تعمد كأنه كلام يدور  
في عقله ولا يحس به على لسانه :

— أعتقد انه لم يعد في مصر فقراء .. أن المجتمع المصرى كله  
أصبح له شكل جديد .. لم يعد يعيش نفس الفوارق الطبيعية التى

نسمع أنها كانت قائمة أيام زمان .. إن العامل أو الفلاح في أدنى مستوياتها أصبح يضع قدميه في حذاء ولا يسير وهو حاف .. وأصبح كائناً الأغنياء يرتدى البنطلون الجينز .. ويأكل الساندويتش والبيتزا .. ولا يحتاج أن يركب الحمار لأنه يستطيع أن يشتري دراجة في انتظار أن يكسب أكثر ليشتري موتورسيكلا وقد يصل إلى شراء سيارة .. أن العامل أو الفلاح الذي كان دخله اليومي لا يتجاوز القروش ارتفع إلى جنيهات وقد يصل دخله الشهري إلى مئات .. لقد أصبح الشعب المصري كله يعيش في بحور من مليارات الدولارات .. وكل هذا ليس مجرد مظهر ولكنه واقع تعيشه مصر ..

وابتسم محي الدين عبد السلام كأنه فرح بأن شد مصطفى إلى الكلام ولأول مرة يسمعه .. وقال وهو يدعى الهدوء كأنه أستاذ :

— لك حق .. إن أفراد الشعب ارتفع دخلهم إلى حد كبير .. ولكن هل ارتفع دخل الدولة ؟ .. إن المسؤولين أنفسهم يعلنون أن الدولة في حالة أقرب إلى الإفلاس .. وماذا يعني هذا ؟ .. يعني أن مصر تجمع شعباً غنياً وتحكمها دولة فقيرة .. والواقع الذي تمنى الوصول إليه أن تكون مصر دولة غنية لشعب غنى .. وإلا كنا نعيش مظهراً من مظاهر الغنى يتعارض مع الواقع القائم .. وهو واقع الفقر .. وقد تتمكن الدولة من الحرص على هذا المظهر سنوات ولكن في النهاية سيضيع هذا المظهر ويلحق فقر الدولة بأفراد الشعب كله .. وتصبح أقرب إلى الواقعية .. أو واقعية دولة فقيرة وشعب فقير ..

وأحسن مصطفى بصورة أبيه تقفز أمام خياله .. إن أباه وضوان الدسوقي ثرى .. ثرى جداً .. مليونير .. في حين أن الدولة المصرية

فقيرة فعلاً باعتراف قادتها .. وهو يعلم أن والده نشأ فقيراً واستطاع أن يحقق كل هذا الشراء .. ويعلم من بعض ما قرأه وسمعه عن التاريخ القديم أن دولة مصر كانت غنية جداً .. أى أن النظم التي تطور إليها المجتمع المصري هي التي حققت ثراء أبيه كما حققت فقر الدولة .. وقال لمحى الدين في صوت محشر وهو يتلعب ريقه :

— لا أدري ماذا تقصد بكلامك .. ما هو العمل ؟

وقال محي الدين وهو لا يزال فرحاً باستقبال مناقشة جديدة :

— إنها مشكلة لا تحل إلا إذا أصبحت الدولة في كيان واحد مع الشعب .. أى يكون واقع الدولة يمثل واقع الشعب .. ولكن دولتنا تهرب من الواقع بخداع الشعب والتعلق بالمظاهر .. إنها كالرجل الغنى الذي أفلس ولكنه لا يزال يصبر على أن يعيش مظاهر الغنى فيضطر إلى الاستدانة بعد أن يرهق كل أملاكه لدى الدائن .. حتى لو وجد نفسه يرهق كل أولاده .. ليكونوا خدماً له .. سداداً للديون .. في حين أنه لو كان قد عاش الفقر لاضطر أن يجهد نفسه حتى يعود إلى الثراء .. أى أنه مادامت الدولة المصرية فقيرة فيجب أن يعيش الشعب هذا الفقر .. حتى لو عاد أفرادهم يعيشون حياة الأقدام ويتمنون ركوب الحمار ولا يعرفون شيئاً عن البنطلونات الجينز وزجاجات الكوكاكولا .. أى أن يرتبط الشعب بواقع الدولة وترتبط الدولة بواقع الشعب .. وهذه الحكومة أو كل نظام الحكم القائم إما أن يطور نفسه إلى أن يعيش الواقع .. وإما يجب أن نبحث عن نظام آخر .. ولا يمكن أن يحدث أى تطور إلا إذا تكلمنا نحن .. تكلمنا كثيراً ..

وسكت مصطفى دون أن يسكت الكلام من حوله ..

وكان الجالسون في البوفيه حول محي الدين عبد السلام يزدادون عددا .. أصبحوا ستة .. ثم عشرة .. ثم أكثر من عشرة .. وهلت عليهم نهي .. وهلل كل الجالسين لها وهي تهلل معهم .. وطافت بهم تصافحهم واحدا بعد الآخر وهي تمنح كل واحد منهم كلمة وضحكة .. إنها تضح بالحيوية وانطلاق السخاء النفسى .. إلى أن وصلت إلى مصطفى وتمدت يدها تصافحه وهي تضحك ضحكة كبيرة قائلة :

— ما الذى جمع المليونير بالغلبة ؟؟

وضحك معها الكثيرون كأنهم يفرجون عن شائتهم فيه .. واكتفى مصطفى بأن صافحها وهو جالس في مكانه ولم يعلق بكلمة .. وانطلق محي الدين قائلا كأنه حريص على التخفيف عن مصطفى حتى لا يهرب منه :

— كلنا في حالة واحدة نجمعنا حكومة واحدة ونثير فينا إحساسا واحدا .. وهو إحساس السخط .. وأنا أعلم أن الأغنياء لا يقلون سخطا عن الفقراء على الحكومة .. لأنها ليست حكومة الأغنياء ولا الفقراء .. إنها حكومة مظهرية ليس لها واقع .. إنها حكومة تدعى المظهر الاشتراكي كأنها في خدمة الفقراء .. وتدعى مظهر الرأسمالية كأنها في خدمة الأغنياء ، ولم تحقق سوى سخط عام يشمل الأغنياء والفقراء ..

وكانت نهي قد جلست بعيدا عن مصطفى وإن كانت جلستها في مواجهته .. وكان يرفع عينيه إليها في نظرات متباعدة .. إنه رآها قبل ذلك بين طلبة الجامعة .. لم يذهب إلى الجامعة في أى يوم إلا ورأها .. وربما لفت نظره إليها أنها كانت كثيرة الحركة .. ودائها

ملعلة .. ودائها مشغولة في حوار مع زميلات أو زملاء .. ودائها ينطق صوتها ضاحكا أو محتدا ناثرا .. ولكنه لم يهتم بها أبدا إلا كمجرد شخصية من بين الطلبة تمر أمام عينيه .. فهو لم يكن يهتم بأى طالبة أو طالب أو يترك اصطدام أحد منهم بنظرة عينيه أى أثر .. وخصوصا أن نهي ليست جميلة حتى يشده جمالها .. ولولمجرد متعة المشاهدة .. وإن كانت أيضا ليست منفرة .. إن شكلها كأنه كله محصول عادى .. كشكل كيزان الذرة .. لا تبهرك ولا تشدك إلا إذا كنت في منتهى الجوع .. وهو لم يحس أبدا بالجوع نحو أى فتاة ..

وكان وهو يتطلع إليها يصادف أحيانا عينها تنظران إليه وبين شفتيها ابتسامة ليست ساخرة كضحكتها التى قذفته بها وهي تصافحه .. ولكنها ابتسامة هادئة كأنها ترحب به .. ولكن ضحكتها الساخرة لاتزال ترن في أذنيه .. وكلماها الأكثر سخرية التى استقبلته بها تسيطر على فكره .. ماذا جمع صاحب الملايين بالغلبة ..

وبعد فترة قصيرة قامت نهي مبتعدة عن جلسة البوفيه .. وابتسامتها تشد شفتيها حتى آخرها .. كأنها كانت قد ظهرت بينهم لمجرد الاطمئنان عليهم وعلى حرارة المناقشات التى تجرى دون أن تشترك فيها ..

وتردد مصطفى لحظة وهو يتبعها بعينه ثم قام كأنه انتهى إلى قرار .. وسار لاحقا بها .. ومحى الدين عبد السلام يطارده بعينه كأنه يناديه أن يعود إليه ..

واقترب مصطفى من نهي وهي تسير في فناء الجامعة بخطواتها السريعة المهتزة وقال لها فورا :



— يا آنسة أنا لست مليونيرا ..

ورفعت إليه ابتسامتها وقالت في بساطة كأنها لم تفاجأ به :

— على الأقل ابن مليونير .. وتعيش حياة أصحاب الملايين ..

وتعيش أفكارهم ودوافعهم التي تختلف عن أفكار ودوافع الغلبة ..

لذلك لم أكن أراك بين الغلبة ودهشت عندما رأيتك بينهم ..

وقال مصطفى بعد أن زفر تنهيدة كأنه يعترف بما يعانيه :

— هناك فرق بين صاحب الملايين وابنه .. فمتعة الحياة

والإحساس بها ليست فيما يملكه الإنسان بين يديه ولكن فيما يسعى

إليه ويحققه .. وأبى سعيد في حياته لأنه سعى إلى الثراء وحققه

ولا يزال مشغولا بما حققه ويحاول أن يحقق المزيد .. ولكنى

أنا لا أسعى إلى شيء .. ولا مشغول بشيء .. إنى ضحية أبى

الذى جعلنى عاجزا عن أن أسعى إلى شيء أحتاج إليه .. بأن تركنى

لا أحتاج إلى شيء .. وأنا أعتبر نفسى عاطلا أبحث عن عمل ..

أى عمل .. إن العمل مهما كان نوعه هو الذى يقيم ويحدد

الشخصية .. وأنا ما زلت أبحث عن شخصية .. ولا يمكن أن

اكتسب شخصية المليونير لمجرد أن أبى من أصحاب الملايين ..

وقالت نهى والدهشة في عينيها :

— كلام عجيب لم أكن أنتظره منك ..

وقال في صوت ضعيف كأنه يتكلم مع نفسه :

— قارنى بينى وبين نفسك .. فأنت لست من الغلبة حتى

لو كان أبوك غلبان .. أنت ثرية بسعيك لتحقيق آمال تزخر بها

نفسك .. إنك على الأقل تحسن بوضعك كطالبة في الجامعة وتحققين

النجاح في امتحان كل سنة .. أما أنا فإنى لا أحس بأنى طالب ..

ولا أحس بأى دافع للنجاح في أى امتحان .. إنك لست عاطلة عن

العمل .. وأنا عاطل .. ولذلك فابنة الغلبان تحس بالحياة مقبلة

عليها حتى وهى محرومة من أشياء .. ولا يحس بها ابن المليونير

ويضيق بها وهو ليس محروما من شيء ..

وقالت نهى وهى تهز رأسها كأنها ليست مقتنعة بهذا الكلام :

— إن الفرق بينى وبينك هو أن الحياة تدفعنى لأن أبنى لنفسى

حياة غير حياة أبى .. وأقيم لنفسى شخصية غير شخصية أمى ..

أما أنت فإن أباك قد أقام لك الحياة التى تدفعك إلى الاستمرار بها ..

والشخصية التى يمكن أن تغريك بالاحتفاظ بها .. ومجرد الاستمرار

بهذه الحياة وهذه الشخصية يعتبر عملا ضخما يشغل كل أيامك وكل

دقيقة من عمرك ..

وقال مصطفى كأنه يزداد سخطا على نفسه :

— إن الحرص على الاستمرار ببناء قائم لا يوفر متعة البناء

الجديد .. وقد وفر أبى لنفسه متعة النجاح في الحياة بأن أقام حياة غير

حياة أبيه .. وأنا أريد أن أقيم لنفسى حياة غير حياته .. حياة خاصة

بى .. وليس كل ما أتصف به فيها أنى ابن مليونير ..

وقالت نهى وهى تلفة بابتسامتها كأنها تشفق عليه :

— كن معنا دائما .. مع الغلبة .. فحياتنا تجعلنا دائما

مشغولين بها .. ولا تترك واحدا منا عاطلا أبدا ..

وكانا قد وصلا إلى الشارع خارج الجامعة .. ونهى تتجه به إلى

موقف الأنوبيس .. وقال لها بأسما :



— إن الميونسير يملك سيارة .. هل يمكن أن يوصلك بها إلى حيث تريدن ؟ ؟

وقالت صاحكة :

— لا .. إن الأتوبيس أسرع .. وأنا متعجلة لأصل إلى البيت قبل أن يعود إليه الغلبان زوجي ..

وقال في دهشة زاعقة :

— متزوجة .. إنك ما زلت طالبة ..

وقالت وضحكتها أكبر :

— لقد كان أهلي يخبشون على من البوار فزوجوني لأول

عريس ..

ولم يضحك وظل صامتا ينظر إليها بعينه المثلثتين بالدهشة .. كأنه يعيش في مفاجأة .. إلى أن جاء الأتوبيس .. وهمس كأنها لن يسمعه :

— كل هذا الزحام !!

وقد سمعته وردت صاحكة :

— لقد تعودت على زحام الغلاية .. سأراك غدا ..

وتركها تحشر نفسها في زحام الأتوبيس .. وهو يسائل نفسه .. هل يراها غدا .. وركب سيارته الصغيرة المركونة بين باقى السيارات وكأنها كلها سيارات تختبئ بعضها في بعض خوفا من الاعتداء عليها



كان مصطفى قد بدأ اليوم التالى وهو يحس أنه قد شقت في شخصيته قناة جديدة .. قناة تجرى فيها المناقشات السياسية حتى تفيض على جانبيها ، إنه لم يكن يخطر على باله أن يدخل في مناقشات مع زملائه الطلبة .. مهما كان موضوع المناقشة وعلى الأخص الموضوعات السياسية .. لم يكن يخطر على باله أن من طبيعته أن يناقش أو يتحمل الصبر على المناقشة في أى موضوع .. ولكن مرت به بالأمس تجربة تعرض لها دون أن يقصدها .. وهى مناقشة زميله محمى الدين عبد السلام الزعيم الجامعى المفترض وزميلته نهى .. وكانت مناقشة سياسية .. ولكنه لم يهنأ بمناقشة محمى الدين .. كان يحس أنه يؤذى واجبا ثقيلًا متعبا بالتعبير عن رأيه .. ولكنه كان مرتاحا وهو يناقش نهى .. أحس معها كأنه منطلق انطلاقا طبيعيا رغم أنها كانتا مختلفين في رأى .. وهو في طريقه إلى الكلية رغم أنه لم يكن من عادته أن يذهب إليها يومين متتاليين .. إنه يحس كأنه على موعد مع نهى .. لا يدرى ماذا يجذبه إلى لقاءها .. نهى ليست جميلة إلى هذا الحد .. ربما لأنه يشعر بأنها تمد إحساسه وعقله بحياة تنبض بالراحة .. واتجه مباشرة إلى بوقية الكلية .. لا أحد فيه .. ربما دفعه الحساس لشخصيته الجديدة إلى وصوله مبكرا .. إن زحام البوقية لا يبدأ إلا بعد أن تبدأ الدروس المقررة .. وشد نفسه إلى حضور الدرس الأول .. ثم قرر أن يحضر الدرس الثانى حتى لا يرمى نفسه على البوقية ويبدو كأنه متهافت على الجالسين فيه .. غريبة .. إنه يستطيع أن يجلس أمام الأستاذ درسين متتاليين ويستوعب كل ما يسمعه منه .. وقد كان من عادته أن يتعالى على حضور الدروس والمحاضرات حتى لا يحشر نفسه بين زحام الطلبة داخل المدرجات الدراسية .. إن أنفاسه تضيق في هذا الزحام .. وكان قد سبق أن

حضر درسا ولم يحتمل الاستمرار فيه فقام قبل أن ينتهي الدرس وشق صفوف الطلبة وخرج من المدرج دون أن يابه بنظرات الأستاذ التي تتابعه في احتقار وسخط .. بل إن الطلبة أنفسهم تابعوه وهم يقذفونه بكلمات جارحة وضحكات ساخرة .. مع السلامة يا ابن الباشا .. ولكنه اليوم يحتمل الزحام .. ويحتمل الجهد الذي يبذله لتركيز أذنيه على سماع درس الأستاذ .. إنه يحس أنه إنسان آخر وشخصية جديدة .. ولم يكتسب هذه الشخصية إلا بعد أن اشترك في نقاش سياسي مع الطلبة ..

إلى أن ذهب إلى الوفية .. ووجد زميله محيى الدين عبد السلام جالسا وحوله مجموعة كبيرة من الطلبة .. ووجهه مترمتم ينطلق بالسخط الشائر .. ولو أنه لم ينس أن يتسم مرجبا عندما رأى مصطفى أمامه .. ولكن أين نهى ؟؟ إنها لم تظهر بعد ، وكان محيى الدين يتكلم في صوت يرتعش بالثورة .. لقد وصلته أخبار بأن الحكومة سترفع من ثمن رغيف العيش .. وأرغفة العيش هي التي تقوم عليها حياة الشعب كله .. فإذا ارتفع ثمن الرغيف ولم يعد الفقير يستطيع شراءه فكاننا نبيد الأغلبية الشعبية من الحياة لتصبح مقصورة على أقلية الأغنياء .. ولا بد أن تدافع الأغلبية عن حياتها من اغتصاب الأقلية .. أن تحمي نفسها ولو بالقوة .. بالثورة ..

وظهرت نهى .. مبتسمة ملعلة كما رآها بالأمس .. ولم تستطع أن تصافح الجميع لكثرة عددهم .. ولكنها صافحت واحدا أو اثنين وهي تتجه نحو مصطفى لتصافحه بحرارة وبين شفقتها ابتسامة أكبر .. وقد مد لها يده في شوق ثم شد لها مقعدا لتجلس بجانبه .. وهو يقول مبتسما كأنه يلقي نكتة :

— هل أخرك الأتوبيس ؟ !

وقالت ضاحكة ضحكة خافتة وسط زحام المجموعة :

— كنت في المدرج .. ولو أن الأتوبيس يؤخرني دائما حتى أنى فكرت في أن أطالب بأن تحدد مواعيد الدراسة بموعد وصول الأتوبيسات ..

وسكتا مستمعين إلى حديث محيى الدين عبد السلام ، إنه يتحدث كأنه يلقي خطابا على الناس المتظاهرين .. ويكرر ما قاله في خطابه كلما هل عليه طالب آخر .. واستمعت إليه نهى وهي تزداد تحبها وتتبعها لكل كلمة .. إلى أن اشتد حماسها وانطلقت مقاطعة لمحى الدين قائلة :

— إن الحكومة لا تستطيع أن ترفع سعر رغيف العيش إلا بعد أن تستشير ستات البيوت السلاتى يحملن مسئولية توفير الحياة للعائلات .. فإن الحكومة تمنح نفسها الحق في تحديد وتوزيع الأجر والمرتبات .. ولذلك فهي مسئولة عن توفير مستلزمات الحياة الكاملة التي يمكن أن يوفرها الأجر أو المرتب .. ولن تستطيع أن تحمل هذه المسئولية إلا بالاتفاق مع ستات البيوت ..

وقال محيى الدين عبد السلام ردا عليها :

— يجب على الحكومة أن تسأل ستات البيوت ورجال البيت .. والحكومة لا تسأل نفسها كيف يعيش كل فرد من أفراد الشعب .. ولا تحمل نفسها مسئولية إعداد مائدة لكل مصرى وتوفر له عليها العيش واللحم والأرز والملوخية .. ربما لأن أفراد الحكومة أنفسهم

موائد غذائهم .. قد يقاومون التخمّة ولكنهم لا يقاومون الجوع ..  
وصفق الطلبة لمحى الدين عبد السلام على كلمته ..

وتنحّح مصطفى حتى بلغت نظر محى الدين إليه ويعطيه حق الكلام ثم قال :

— إنى مقتنع بكل ما سمعته .. ولكن يجب ألا ننسى أن الحكومة رفعت الأجور والمرتبات خلال السنوات العشر الماضية إلى عدة أضعاف .. فإذا كان الدخل قد ارتفع فيمكن أن يحتمل ارتفاع سعر رغيف العيش ..

وارتفع صوت محى الدين ردا على مصطفى وإن كان قد راعى أن يكون مهذبا حتى لا يغضبه :

— المفروض أن الحكومة رفعت الدخل الفردى ليستطيع الفرد أن يشتري رغيفين بدلا من رغيف واحد .. أو يستطيع أن يشتري ما ينقصه من متطلبات أخرى .. أما إذا ارتفعت الأسعار فكان الدخل لم يرتفع .. وقد ارتفعت فعلا أسعار احتياجات كثيرة مع ارتفاع قيمة الأجور والمرتبات .. وتحمل الشعب هذا الارتفاع في مرارة لأنه كان يستطيع أن يستغنى عن هذه الاحتياجات أو يقتصد فيها .. إذا كان يريد أن يأكل اللحم في الأسبوع مرتين فإنه يستطيع أن يكتفى بأن يأكله يوما واحدا في الشهر .. أما أرغفة العيش فهو لا يستطيع أن يستغنى عنه أبدا ولا حتى يوفر مما تعود أن يأكله منه .. إن العيش هو العمود الفقرى للحياة يجب أن نوفره دائما لطن كل مخلوق .. وإذا

ارتفع سعر العمود الفقرى هذا ارتفعت معه أسعار كل مطالب الحياة ..

ولم يرد عليه مصطفى مفضلا الصمت إلى أن عاد محى الدين يقول :

— إننا لن نقوم بمظاهرات اليوم ولا غدا .. يجب أن ننتظر إلى أن يصدر القرار برفع ثمن رغيف العيش فعلا .. وستصل اليوم بكلية التجارة .. والزراعة .. والحقوق .. وبجامعة عين شمس .. وبكل من نستطيع الاتصال بهم .. حتى تعد الجامعة نفسها لمظاهرة عامة شاملة تحجر الحكومة على عدم رفع سعر الرغيف حتى لو كانت قد أصدرت قرارها به ..

واستمرت المناقشات كأنها لن تنتهى .. مناقشات ساخطة تتخللها ضحكات تخفف منها وتحرض على استمرارها .. إلى أن قامت نبي منصرفة ولحق بها مصطفى كما حدث أمس .. كأنه أصبح متعبا على اللحاق بها .. وقال لها وهو يسير بجانبها :

— هل يضايقك فعلا ارتفاع ثمن رغيف العيش حتى تشترى في الثورة التى يدعو إليها محى الدين ؟  
وقالت ضاحكة :

— إننى من الطبقة التى يسمونها طبقة محدودى الدخل .. وهى طبقة الموظفين وحدهم لأنهم يعيشون على أجر أو دخل محدد سواء فى الواقع أم المستقبل .. أما باقى الطبقات فليس لها دخل محدد .. إننا نعيش أفرادها وهم يسعون إلى الحصول على دخل يرتفع بهم إلى منتهى الغنى أو يهوى بهم إلى منتهى الفقر .. وأنا ابنة موظف فى

الحكومة .. قد يحتمل راتبه أن يضيف قرشا على ثمن الرغبة ..  
ولكن هذا القرش سيضطرنا قطعاً إلى إعادة تنظيم ميزانية البيت  
كله .. قد نعجز عن أكل المكرونة مثلاً أو نختصر من صنف الفاكهة  
والبطيخ .. وقد يضطر والدى إلى تخفيض مصروفي اليومى من عشرة  
قروش إلى خمسة .. لذلك يجب أن أعلن الثورة على رفع سعر الرغبة  
حتى لا أحرم من المكرونة والبطيخ وحتى لا أتعرض لتخفيض  
مصروفي ..

وكان يستمع إليها وهو مبهور بمنطقها الجاد الذى تعرضه عليه  
في بساطة وخفة دم .. إنه لم يلتق أبداً بفتاة تهتم إلى هذا الحد بجدية  
مشاكل الحياة .. وتتبع بكل هذا الحماس سياسة الحكومة في مواجهة  
هذه المشاكل .. ووجد نفسه يجهد عقله في البحث عن رد عليها  
يقنعها به كما تحاول هى أن تقنعه .. ثم برقت عيناه كأنه وجد  
حلاً .. وقال وكأنه مبهور بما اكتشفه :

— إن كل ما تحاوله الحكومة هو التخفيف من ميزانية الدعم  
الضخمة التى تدفعها لتوفير رغيف العيش .. ولكنها كانت مخطئة في  
أن تساوى بين الفقراء والأغنياء في هذا الدعم .. الفقير يدفع قرشاً  
والغنى أيضاً يدفع قرشاً .. وإذا كانت حكومة قادرة على الاعتراف  
بالواقع ومواجهته فيجب أن تصرف بين من يستحق الإعانة ومن  
لا يستحقها .. وتعدد من قيمة ثمن رغيف العيش مع تعدد  
مستويات الدخل الفردى .. أى تبع رغيفاً بقرش .. ورغيفاً  
بقرشين .. ورغيفاً بخمسة قروش .. ورغيفاً بعشرة .. وترك كل  
فرد يشتري بما يحتمله دخله الخاص دون أن يحرم أى منهم من رغيف

العيش أو يعانى في سبيل الحصول عليه ما لا يطيق .. إنها بذلك توفر  
من ميزانية الدعم مع تحقيق العدالة وتغطية احتياجات الشعب ..

وقالت نهى من خلال ابتسامة ساخرة :

— إنك تفكر بعقلية ابن المليونير .. وأحب أن أقول لك أنى  
لا أطيق أن أكل رغيفاً بقرش بينما أرى أمامى من يأكل رغيفاً بقرشين  
أو بخمسة أو عشرة كما تقول ..

وقاطعها بصوت خفيض كأنه يحدث نفسه :

— إننا في بيتنا نأكل رغيفاً ثمنه خمسة وعشرون قرشاً نشتريه من  
غيزي في جاردن سيتى يبيع العيش وقطع الجاتوه .. وهو عيش فينو ..  
وصاحت من خلال ابتسامتها الساخرة :

— إذا كان الغلبة محرومين من العيش الفينو فيجب أن يحرم منه  
الأغنياء .. إننا نطالب بالمساواة .. وإذا كانت المساواة لم تتحقق  
حتى اليوم في أى جانب من جوانب الحياة فعلى الأقل يجب أن نحفظ  
بها بالنسبة لرغيف العيش .. ثمنه وطعمه .. إن الرغبة هو عصب  
الحياة ويجب أن يحس الناس كلهم بأنهم يجمعهم عصب واحد ..  
حتى لو كان بينهم أفراد يتسللون ويأكلون العيش الفينو .. يكفي  
أنهم مضطرون أن يأكلوه خفية ومخبئين عن أعين الأغلبية الغلابة ..  
وقال مصطفى بهدوء :

— إنه موضوع في حاجة إلى مزيد من التفكير قبل أن نقوم  
بمظاهرات وثورة ونحن لا ندرى حلاً للمشكلة نطالب به  
الحكومة ..

وقالت نهى وقد بدأت تهدأ :

— إن المظاهرات تدفع إلى المزيد من التفكير الرسمي  
والشعبي ..

وكانا قد وصلا إلى محطة الأتوبيس .. ووقفت نهى وقد تجردت  
ابتناسمتها من كل ما كان يشوبها من معالم السخرية .. كأن مناقشة  
الموضوع بينها وبين مصطفى قد انتهت دون أن تترك أثرا يبعدها  
عنه .. وقالت في انطلاقة حلوة صافية :

— هل أراك غدا ؟ ؟

وقال في رجاء :

— هل تسمحين بأن أوصلك بسيارتى ؟ ؟

وقالت ضاحكة :

— لا تدفعنى إلى ركوب سيارتك وإلا أخذت أتعود عليها ..  
وأخشى إن تعودت على ركوب سيارة خاصة أن أبدأ فى الاشتياق إلى  
طعم العيش الفينو ..

وقفزت تلقى بنفسها داخل زحام الأتوبيس ..

## الفصل الثانى

كان الخبر قد انتشر ليلتها .. خبر أن الحكومة قررت رفع سعر  
رغيف العيش .. ورغم أن الخبر لم ينشر إلا أن الحيازين والبقالين  
امتنعوا فى ذلك المساء عن بيع أرغفة الخبز التى لا تزال متبقية لديهم  
انتظارا لبيعها بالسعر الأعلى الذى سيفرض ابتداء من صباح الغد ..  
وقد سمع مصطفى هذه الأخبار وهو يتجول فى النادى الذى تعود  
التردد عليه كلما هل المساء .. وقد سمعها فى كلمات عابرة لا يشوبها  
اعتراض أو سخط .. إنما مجرد أخبار .. ربما لأنه ناد لا يجمع إلا  
الأغنياء .. ولا يفتح أبوابه للفقراء .. وقد أراد مصطفى أن يتأكد مما  
سمعه بين ضحكات النادى .. فركب سيارته واتجه بها إلى حى  
بولاق .. وترك السيارة فى الشارع العمومى ثم دخل ماشيا إلى حوارى  
الحى إلى أن صادف دكان بقال فاقترب من البائع وطلب منه شراء  
رغيف خبز .. وقال البائع وهو يدير عنه عينيه :

— آسف يافندى .. العيش شطب ..

وسكت مصطفى وهو يلمح حوافى أرغفة من العيش مكدسة فوق  
رف عال من الدكان .. أهمل البائع فى إخفائها .. إن أهالى حوارى  
بولاق سينامون هذه الليلة جوعى دون أن يتخموا بطونهم بالخبز ..

ولم يجادل مصطفى البائع .. وابتعد سريعا .. ورأسه يضغط  
بموضوع واحد .. إن المظاهرات ستبدأ غدا فى الجامعة .. وخطر له

أن يتصل بمحى الدين عبد السلام الذى يتزعم الدعوة للمظاهرات حتى يفهم منه تفاصيل ما سيتم غدا . . ولكنه لا يعرف عنوانه ولا يدرى كيف يتصل به . . وكذلك نهى . . إنه لا يملك وسيلة للاتصال بها . . ومحى الدين ونهى هما وحدهما اللذان يمثلان بالنسبة له الجامعة . . كأنها كل الطلبة . .

وفكر فى أن يعود إلى النادى ويجمع أصدقاءه ويناقشهم فى موضوع رفع سعر الرغيف . . لعله يستقر على رأى يريجه . . ولكن أصدقاءه لن يتأثروا أو يهتموا برفع سعر الرغيف . . كلهم مثله من أولاد الأغنياء . . ومشكلته أنه بدأ يختلف عنهم كلهم وبدأ عقله يتشتت كأنه بدأ يحمل مسؤولية أولاد الفقراء . .

لماذا لا يعود إلى البيت ويتنظر والده حتى يعود ويستفهم منه عما دفع الحكومة إلى رفع رغيف العيش . . إن والده يعلم دائما بكل القرارات الحكومية مستبقا قبل أن تصدر . . ولكنه يعلم أن والده يوافق مقدما أيضا على كل قرار تصدره الحكومة ليقبى على تحالفه معها الذى تقوم عليه كل مشروعاته . . التحالف مع أى حكومة . . ثم إن والده رفع سعر الرغيف على نفسه قبل أن ترفعه الحكومة . . إن العائلة تأكل وضييفا ممتازا من العيش الفينو . . ثمنه خمسة وعشرون قرشا . . وإن كانت لا تزال عند الخدم بالعيش الشعبى الذى لا يتجاوز ثمنه قرشا واحدا . . ولن يضير والده أن يرفع ثمنه إلى قرشين . . لا إشفافا ولكن اضطرارا لا يعجزه . . ومهما قال له والده فلن يسمع منه إلا تأييدا للحكومة وسخرية بالمعارضين والرافضين . . إنه يستطيع أن يستنتج ما سيقوله له دون أن يسمعه منه . .

ولكن لماذا يهتم هو نفسه بهذا الموضوع ويشغل نفسه به . . إن

المعركة بين الأغنياء والفقراء حول تكلفة الحياة هى معركة طبيعية مستمرة . . وهى ليست معركة حول حق المساواة . . فالمساواة لا يمكن أن تقوم على فرض نظام يساوى بين دخول كل أفراد الشعب حتى يستطيع كل فرد أن يدفع ثمن الرغيف ويدفع تكاليف الحياة . . فدخل الفرد يقوم على ما يقدمه من عمل . . ولا يمكن أن نساوى بين من يعمل ومن لا يعمل . . بل لا يمكن أن نطالب به هو المساواة فى حرية العمل . . ووضع هذه الحرية فى مجال يعترف به القانون حتى لا تكون حرية السرقة مثلا من بين حرية العمل . . إنه يعلم أن والده بدأ الحياة فقيرا . . فى منتهى الفقر . . وأصبح مليونيرا . . فى منتهى الغنى . . كيف ؟ . . بالعمل . . فلماذا لا يطالب الغلبة من طلبة الجامعة بحرية العمل إذا كانت ليست لهم ، حتى يستطيعوا دفع ثمن رغيف العيش لو ارتفع . . إنهم لا يحسون بمسؤولية العمل . . إنهم يريدون الحياة فى رخاء بلا عمل . . ويريدون أن يعيشوا على حساب الأغنياء دون أن يكذبوا ويتعبوا . . وربما لو كان الأغنياء أكثر سخاء ووفروا للفقراء الرخاء فى مطالب الحياة لما فكروا فى ثورة عليهم ولا حتى فى القيام بمظاهرة . . وقد حدث هذا فعلا عندما قررت الحكومة تعيين كل خريجى الجامعة كموظفين فى الحكومة دون أن تعهد إليهم بعمل إنما المجرى أن تدفع لهم مرتبات توفر لهم بعض مطالب الحياة لتسكتهم وتتقن سخطهم الذى ينتهى إلى ثورة . . وهو ما أدى إلى إفلاس الحكومة ، ورغم هذا فهم لا يستطيع أن تتوقف عن دفع مرتبات موظفيها الذين لا يقومون بأى عمل . . ولا تستطيع أن توقف الدعم لمطالب الحياة الشعبية الذى يكلفها غالبا . . كل ما تستطيعه هو رفع سعر رغيف العيش . . قرشا واحدا . .

تردد هذا الكلام في عقل مصطفى .. ثم لم يلبث أن هز رأسه كأنه يطرد هذا الكلام منها .. إنه كلام ينطلق من عقلية كأنه ورثها من عقلية أبيه .. إن أباه يحصر الحياة كلها في عمله .. ولا يخطر على باله أيضا أى مسئولية خارج عمله .. ولكن لا .. إن الأغنياء والفقراء لا يفترقان كشيئين أو كدولتين أو كبليدين .. إنها شعب واحد ودولة واحدة وبلد واحد .. ويجب أن يعيشا هذه الوحدة .. الأغنياء مسئولون عن الفقراء .. والفقراء مسئولون عن الأغنياء .. وهى ليست مسئولية دوافعها شفقة الأغنياء على الفقراء .. أو حاجة الفقراء إلى الأغنياء .. ولكن دوافعها الحرص على مصير واحد مشترك .. مصير الشعب المصرى الواحد .. والشعوب الراقية الهادئة المستقرة تعيش هذه الوحدة .. ويقبل الغنى فى استسلام أن يدفع ضرائب تصل إلى تسعين فى المائة من دخله .. ويقبل فى استسلام أن يحصل الغلابان على دخله ليوفر له مطالب الحياة ما دامت حرية العمل متوافرة له ويستطيع أن يصل إلى أعلى .. وأعلى .. كلاهما .. أى الغنى والفقير .. مطمئن إلى أنه فى دولة لها حكومة تستطيع أن تراعى حق كل منها ..

إنه منذ أن بدأ يشترك فى اجتماعات ومناقشات طلبة الجامعة يحس بمسئولية جديدة لم تكن تخطر على إحساسه .. وهى مسئوليته عن الغلابة .. ولو أن زملاءه الذين يشترك معهم فى المناقشات ليسوا فى منتهى الفقر .. إن أغلبهم فى مستوى من الطبقة الوسطى قد يصل إلى أدناه .. ولكن ماهو الفقر .. إنه ليس مجرد عدد القروش التى تحملها فى جيبك .. ولكنه يقوم على مدى اطمئنانك إلى الاستمرار فى الحياة .. وهم ليسوا مطمئنين إلى مستقبل حياتهم .. كما هو مطمئن

إلى أنه على الأقل سيرث ملايين والده .. فهم فقراء .. وقد بدأ يحس أنه لا يساوى شيئا فى الحياة إن لم يشترك معهم فى حمل مسئولية هذا الفقر ..

ولم يتم ليلتها .. وأفكاره تتعارض بعضها مع بعض وتقلقه .. وفى الصباح الباكر قام ملهوبا وأسرع بارتداء ملابسه كأنه يتعجل مواجهة الواقع .. وأخذ طريقه بسيارته إلى كلية الهندسة .. وعلى غير العادة وجد الفناء فى هذه الساعة المبكرة مزدحما بالطلبة .. ووجد نهى واقفة وسط الزحام كأنها جاءت إلى الجامعة تجرى على قدميها حتى لا يؤخرها الأتوبيس .. ووجد محيى الدين عبد السلام واقفا يتكلم بصوت عال كأنه يلقي خطابا ، ولكنه يلقيه بصوت هادئ كأنه يعرض خطة .. وكان يقول :

— إن رفع الأسعار لن يقتصر على رغبة العيش .. سترفع أسعار كل مانعش عليه وكل مافى البيت بما فيها أسعار البوتاجاز .. لماذا يرفعون الأسعار .. إنهم يرفعونها حتى يزداد غنى الأغنياء ويزداد فقر الفقراء .. وحتى يزداد الشبان شبعاً .. ويزداد الجوعانون جوعاً ونحن مستعدون أن نموت جوعاً ونستشهد فى سبيل مصر ولكننا لن نترك اللصوص يمدون أيديهم إلى أعناقنا ليختنقونا .. وصاح طالب هاتفا :

— كلهم لصوص .. ولن يحكمنا لصوص ..

وردد عدد قليل هذا الهتاف فى صوت ضعيف .. ورفع محيى الدين يده كأنه يسكت محاولة ترديد الهتافات واستطرد قائلاً :

— لقد اتفقت مع زملائنا الطلبة على أن نخرج من هنا ونسير



صامتين دون أن نطلق أى هتاف حتى نصل إلى مجلس الوزراء . .  
ونطلب أن يقابل الرئيس وفد منا . . حتى نبليغه مطالبنا وإصرارنا  
عليها . فإذا لم نقابله سرنا بالمظاهرة إلى ميدان عابدين وبقينا متجمعين  
في مواجهة القصر لو قضينا الليل . . أو حتى ليالى . . ونحن  
متجمعون أمام القصر صامتين إلى أن تعدل الحكومة عن رفع  
الأسعار . .

وارتفع صوت صائحا :

— لماذا نسير صامتين . . لماذا لا نرفع أصواتنا بآرائنا . . ونطالب  
بإسقاط الحكومة حتى نفرض عليها الاستجابة لمطالبنا . .

وقال محيى الدين :

— إنها دعوة للشعب كله حتى يتجمع في مواكب تملأ كل  
الشوارع وهو صامت . . كأن الشعب كله في جنازة بشيع بها حرته  
وحقه في الحياة . .

وارتفع صوت آخر :

— وإذا هاجنا البوليس رغم أننا نسير في صمت . .

وقال محيى الدين وصوته العالى يصل إلى المئات :

— إن البوليس ينفذ أوامر . . وقد لا تصدر إليه أوامر الاعتداء  
علينا ونحن صامتون . . أما إذا هاجنا رغم ذلك قلنا حقنا الطبيعي  
في الدفاع عن النفس . . ولتكن معركة حتى ولو استشهدنا كلنا . .  
واستمرت المجادلات تتخللها هتافات وإن كان لا يرددها  
الجميع . .

ومصطفى واقف وسط الزحام بجانب نهي . . يكاد يكون  
ملتصقا بها . . وهى منذ رآته وهى فرحة به . . وقد شدت على يده  
فائلة من خلال ضحكها كعادتها :

— كنت أخشى ألا تنضم إلى الغلابة . .

وقال مصطفى كأنه يلومها :

— ليس هنا غلابة . . هنا قوة شعبية . . وقد جئت لأنضم إلى  
القوة . .

وصاحت نهي :

— وسنفرض قوتنا على الحكومة . . سننتصر . .

وكانت نهي لا تكف عن الكلام مع كل من حوّلها . . وصوتها  
عال كأن كل كلماتها هتافات . . بينما مصطفى يتطلع حوله صامتا . .  
كأنه يحاول أن يكتشف عالما جديدا غريبا عليه . . إنه يرى كثيرا من  
الطلبة المعروفين لم يكن يراهم في لقاءات البوفيه التى تلتف حول محيى  
الدين عبد السلام . . بل إنه اكتشف أن ليس كل الطلبة يقفون أمام  
عحى الدين عبد السلام . . إنهم منقسمون إلى جماعات تلتف كل منها  
حول شخصية أخرى . . ماذا يقول كل منهم . . لا يدري . .  
ولا يستطيع أن يسمعهم . . إلى أن بدأت المسيرة . .

كانت كتلة واحدة من البشر تتحرك في صمت . . وكان مصطفى  
يجانب نهي يسيران في الصف الأول بجانب محيى الدين . . وبعد أن  
خرجوا من فناء كلية الهندسة التقوا بمجموعة كلية الحقوق . . وكلية  
الآداب . . ولحقت بهم مجموعة كلية الزراعة . . الآلاف تتحرك في  
صمت كأن مصر فعلا في جنازة . . ولكنهم ما كادوا يصلون إلى

مدخل الشارع العمومي حتى وجدوا رجال البوليس يسدون الشارع  
وفي يد كل منهم هراوة وفي يده الأخرى درع مخصصة لحماية نفسه ..

وارتفع هتاف :

— البوليس مع الشعب .. والشعب مع البوليس ..

وردد هذا الهتاف بقوة ..

ثم رفع محيى الدين ذراعيه يطلب من الجميع التوقف .. ثم  
تقدم وحده متجهاً إلى ضابط البوليس الذى يبدو كأنه القائد ..  
وما لبث أن لحق بمحيى الدين ثلاثة من الطلبة الآخرين لعلهم قادة  
التظاهرات الأخرى .. وقال محيى الدين لضابط البوليس بعد أن وصل  
إليه :

— إننا نقوم بمسيرة سلمية .. وقد قررنا أن نمتنع حتى عن  
العتاف .. إلى أن نلتقى برئيس الوزراء ونبلغه مطالبنا ..

وقال الضابط فى برود :

— ممنوع .. عودوا إلى داخل الجامعة وقولوا رأيكم ومطالبكم  
دون أن تخرجوا منها ..

وصاح واحد من قادة الطلبة الملتفين حول الضابط :

— لن نعود .. وسنستمر بالمسيرة حتى مجلس الوزراء ..

وصاح الضابط فى سخط وهو يشير بأصبعه إلى رجاله :

— قلت لكم ممنوع ..

ومد يده بهم أن يمسك بمحيى الدين كما هم بعض رجاله أن

بمسكوا بالباقيين .. ولكن الطلبة استطاعوا أن يفروا من أمامهم ويجروا  
إلى تكتل مجموعة المتظاهرين ..

وبدأت المعركة ..

وكالعادة .. البوليس يطارد الطلبة بالعصى الغليظة .. ويطلق  
الرصاص فى الهواء مهدداً بأن يطلق عليهم .. كما يطلق قنابل تدرف  
دموع العيون التى تمسها .. والطلبة يدافعون عن أنفسهم بقذف  
الحجارة .. وقد يتمكن بعضهم من الانفراد بأحد عساكر البوليس  
فيلقونه أرضاً وينهالون عليه ضرباً .. ومصطفى حائر .. لا يدري  
كيف يهاجم ولا كيف يدافع عن نفسه .. ولكنه يجرى وراءه ..  
يهرب معها .. ويقف معها وهى تلتقط الطوب وتلقى به .. إن  
حولهم أكواما كثيرة من الطوب لم يلحظها من قبل .. هل جمعت  
خصيصاً لملاقاة هجمات البوليس .. ولكنه لا يلتفت طوبة ويقذف  
بها .. إنه فقط بجانبه محيى .. وهى تنضم حيناً بعد حين إلى  
المجموعات البعيدة عن البوليس وتردد معهم الهتافات .. وهو أيضاً  
يردد معها هذه الهتافات .. ولكنها هتافات عجيبة بالنسبة له ..  
« مش كفاية لبسننا الخيش جاين ياخذوا رغيف العيش » ..  
« يا حرامية الانفتاح .. الشعب جعان مش مرتاح » .. « يشربوا  
ويسكى ويأكلوا فراخ والشعب من الجوع أهوا داخ » .. « هو بيلبس  
آخر موده واحنا بنسكن عشرة فى أوده » .. بل إن الهتافات تطورت  
إلى أبعد من ذلك .. لم تعد مقصورة على رفض رفع الأسعار .. لقد  
كانوا يهتفون .. « الصهيونى فوق ترابى والمباحث على بابى » ..  
« يا أمريكا لى فلوسك بكرة الشعب يدوسك » .. « احنا الشعب مع  
العمال ضد حكومة الاستغلال » .. و .. و .. وهو لم يكن يتصور

أن وحى الموقف يمكن أن يطلق هذه الهتافات المنغمة كأنها أبيات من الشعر .. كما أنها هتافات لا تعبر عن مجرد الموضوعات التي كانوا يناقشونها في بوفيه الكلية .. إنها تعرض موضوعات سياسية واسعة .. ولكن شلة البوفيه ليست وحدها التي تقوم بالمظاهرة أو تقودها .. ووسط كل مايجرى حوله وعيناه مركزان على نهى كأنه يخاف عليها ..

وفعلا .. لم تلحظ نهى وهي تجرى في ميدان المعركة أن أحد عساكر البوليس قد أصبح بجانبها رافعا عصاه لينهال بها فوق رأسها .. وجرى مصطفى إليها وشدها بعيدا عن العسكرى فسقطت العصي على رأسه هو .. كانت ضربة عنيفة شقت رأسه ونزف منها الدم .. وسقط واقعا على الأرض .. وعاجله العسكرى بضربة أخرى بعصاه فوق ظهره .. ثم تحطاه يجرى باحثا عن ضحية أخرى ..

وصرخت نهى .. مصطفى .. ثم سقطت على ركبتيها بجانب جسده الممدد على الأرض .. إنه لا يزال حيا .. وقد رفع يده يضغط على رأسه المشقوق كأنه يحاول أن يحتفظ بدمه المنهار قبل أن يفرغه كله .. وجاء اثنان من الطلبة يحاولان رفعه عن الأرض .. وأحدهما يقول للآخر :

— نأخذُه داخل الكلية ..

وظهر شاب ثالث .. فتحى إبراهيم .. وهو أحد أفراد شلة البوفيه .. وقال كأنه يهتف :

— لا .. لا تدخلوا به إلى الكلية .. إن البوليس يحتلها وقد يقبضون عليه .. تعالوا معي ..

وشدت نهى « الإشارب » الذى يلفب عنقها وحاولت أن تسد به الجرح الذى شق جبينه ثم لفت به رأسه .. وتعاونت مع الباقيين فى الوقوف به ..

ولم تكن الضربة قد أفقدت مصطفى وعيه .. ولكن الدماء لا تزال تنزف من رأسه وتجري فوق وجهه دون أن يستطيع إيشارب نهى أن يصددها .. كما كان يحس بألم الضربة التي سقطت على ظهره .. يحس كأن عظامه قد تفتتت .. وقد استطاع أن يقاوم ويقف مستندا على أكتاف زملائه .. وساروا به وهم يحاولون الجرى به .. ونهى تجرى معهم .. وصاح فتحى إبراهيم فى مصطفى وهو يسنده بذراعه :

— أين سيارتك ..

ورفع مصطفى ذراعه مشيرا إلى مكان السيارة وكان قد تركها بعيدا عن مدخل الكلية احتياطا للطوارئ .. وعاد فتحى يصيح :

— سأقودها أنا .. أين المفتاح ..

وحاول مصطفى أن يضع يده فى جيبه وهو يسير مترنحا وسيقانه ترتعش مع نظراته .. ولكنه لم يستطع أن يدخل يده فى جيبه حتى يخرج المفتاح فأسرعت نهى ودست يدها بدلا من يده وأخرجت ما فيه من مفاتيح ناولتها لفتحى ..

ودفعوا مصطفى إلى المقعد الخلفى وقفزت نهى جالسة بجانبه ومدت ذراعا فوق كتفه وأمالت رأسه فوق صدرها وهي تضغط بيدها الأخرى على الجرح وتحاول أن تحبس الدم المنهار .. وقفز فتحى أمام عجلة القيادة وهو يقول لزميلته :

— سأخذه إلى بيتنا .. إن في العمارة عيادة طبيب وبجانبيها  
أجزاء خاانة ..

وانطلق بالسيارة في سرعة مجنونة .. بينما جرى زميلاه عائدين إلى  
تجمع المسيرة والاشترك في المعركة .

وفي دقائق استطاع فتحى أن يصل إلى العمارة التى تقع عند  
منحنى من منحنيات ميدان الجيزة .. وكأنه كان يقفز بالسيارة فوق  
كل ما ومن يعترضها .. وتعاون مع نهى في جذب مصطفى إلى خارج  
السيارة وصعدا به السلم وهو يزفر أنفاسه كأنه يتأوه .. ودخلا به إلى  
عيادة الطبيب في نفس العمارة .. إن الطبيب أستاذ في الجامعة ولكنه  
لم يستطع أن يذهب يومها إلى طلبته اتقاء من المظاهرات ..

ولوى الطبيب شفثته قرفا وسخطا وهو يستقبلهم .. لقد جاءوا  
إليه بواحد من المجانين .. ولكنه بدأ يقوم بمهمته .. وقال بعد أن  
كشف عن الرأس المشقوق :

— بسيطة .. لا أكثر من غرزتين ..

وبدأ يغرز الخيط في جبين مصطفى وهو لا يصرخ ألما رغم أن  
الطبيب لم يخدره بالبنج ليرحمه من الألم .. ربما لم يكن مصطفى ساعتهما  
قادرا على الصراخ مهما بلغ به الألم .. ونهى وفتحى من حوله وعيونهما  
منكسرة كأنهما على وشك أن يبكي إشفاقا عليه ..

وانتهى الطبيب ولف رأس مصطفى بالشاش .. وقال فتحى في  
لهجة مهذبة :

— الأنعاب يا دكتور ..

وقال الطبيب بإتسامة كأنها مغتصبة :

— لاشيء .. كأنى مشترك معكم في المظاهرات .. وأنا مثلكم  
لا أؤيد ، ولست سعيدا برفع سعر رغيف العيش .. وإنى في انتظار  
ابنى ولا أدري كيف سيعود إلى .. إنى سأطالبه هو بالأنعاب إن لم  
يعد سليما ..

وابتسم فتحى ونهى امتنانا للطبيب .. وكانت ابتسامة مصطفى  
أكبر .. كأنه فرح .. لا لأن الدكتور لم يأخذ أنعابا ولكن لأن الدكتور  
ليس من الغلبة ، ورغم ذلك لا يقبل رفع سعر الرغيف ..

وسانده فتحى حتى دخل به إلى بيته وأجلسه على مقعد مريح ..  
إن مصطفى رغم طغيان الألم الذى يضج في رأسه إلا أنه استرد كامل  
وعيه وأفاق من انهياره وضعفه .. وقالت نهى وهى تشير إلى رأسه  
الملفوف بالشاش وتبتسم ابتسامتها الواسعة كعادتها :

— لقد بدأت تعتدى على حقوقى .. فهذه الضربة كانت من  
حقى أنا ..

وقال من خلال ابتسامة ضعيفة :

— لا تكونى أنانية وتفرقى بين حقوق الناس .. والبوليس  
لا يعتدى علينا ليعطينا حقا ولكنه يسلب حقوقنا .. وكلها حق  
واحد ..

وبحلفت نهى في وجهه كأنها دهشة لما يقوله .. إنها أول مرة  
تسمع منه مثل هذا الكلام .. لعل الضربة قد غيرت فكره وآراءه ..  
أو لعله كان تائها إلى أن أفاقته الضربة على المكان الذى يختار أن يقف  
فيه ..

واعترض فتحى ليغيب عنها دقائق .. ونزل إلى الشارع ووقف

أمام سيارة مصطفى التي كان يقودها ودار حولها كأنه يحاول أن يتعرف عليها . . إنه منذ كان صبيا وهو يحلم ويتمنى أن يملك سيارة . . وقد علم نفسه قيادة السيارات وتفوق فيها ولكنه إلى اليوم لا يملك سيارة . . لا هو ولا عائلته . . ولا يستطيع أن يتصور طريقا يصل به إلى شراء سيارة . . بل إن أحلامه بدأت تنحصر في أن يبدأ بأن يكون سائق تاكسى رغم أنه طالب في كلية الهندسة . ولكنه اختار أن يدرس الهندسة الميكانيكية حتى يستوعب كل ميكانيكية السيارات . . وربما بعد أن يكون سائق تاكسى يستطيع أن يشتري سيارة لنفسه . . إن سائقي التاكسى يحققون أرباحا وفيرة . .

وركب فتحى السيارة بعد أن أقنع نفسه أنه سيعدل موقفها بمحاذاة الرصيف . . ولكنه ما كاد يمسك بعجلة القيادة حتى انطلق بها يلف ما حول الشارع من حواري . . إنه لا يستطيع أن يقاوم شهوة القيادة . . ولكنه ما لبث أن عاد وركن السيارة أمام العمارة ثم نزل منها وأغلق أبوابها بالمفتاح وهو يتحسس جدرانها بيديه كأنه يربت عليها مودعا . . ثم صعد إلى شقته ودخل على مصطفى ونهى ومد يده بسرعة إلى مصطفى يتاوله مفتاح السيارة كأنه يهرب مما تثيره فيه شهوة القيادة . .

وكانت الساعة قد وصلت إلى الثانية بعد الظهر عندما وفد عليهم محيى الدين عبد السلام واثنان من زملائه . . لقد علموا بإصابة مصطفى وحمله إلى بيت فتحى فجاءوا للاطمئنان عليه . . ولكن محيى الدين لم يسأل عما يطمئنه ولكنه نظر إلى رأس مصطفى المضمّد بالشاش نظرة عابرة ثم قال :

— فضت المسيرة قبل أن تصل إلى الكوبرى . . لقد كان

البوليس يضرب فينا بقسوة . . كانت معركة كأنها معركة أكتوبر جديدة . . معركة الشعب المصرى وإن لم تكن ضد إسرائيل . . لقد سقط من بيننا كثيرون واعتقلوا العشرات . . وصاحت نهى كأنها تعود إلى الهاتف :

— إما أن يفرجوا عن المعتقلين أو يعتقلونا كلنا . . لن نستسلم ولن تنتهى الثورة . . ثم خفت صوتها واستطردت قائلة وهـ تستدير نحو الباب :

— عن إذنكم . . إنى مضطرة أن أعود إلى بيتى الآن . .

وتتبعها مصطفى بعينه وهى خارجة وهو يودعها بابتسامة ساخرة . . إنها لا تستطيع أن تحمل بواجباتها الزوجية حتى في سبيل الوطن . .

وجلس محيى الدين بجانبه وقال في صوت هادىء كأنه ينوى أن يجادته طويلا :

— إننا لن نسكت . .

وقال مصطفى في حدة يعترضها زنين آلامه التى تنطلق من رأسه :

— لا . . لن نسكت . . إنهم أغبياء لا يعلمون أن تقييد الحرية يدفع إلى مزيد من الحرية . .

ونظر إليه محيى الدين كأنه فخور مزهو باكتسابه ثم قال :

— ولكننا يجب أن نسأولهم . . فإذا أفرجوا عن المعتقلين نعدهم

بالتفاهم معهم في سلام .. وقد خطرت على بالي فكرة .. فإن والدك يستطيع أن يكون الوسيط بيننا وبينهم ..

واهتز مصطفى كأنه فوجيء بذكر والده وكأنه كان قد نسيه .. وقال :

— أن أبى ليس مسئولاً عن الحكومة .. ولا يتدخل في أى تصرف حكومى .. إنه متفرغ لمسئوليّاته بعيداً عن أى مسئولية عامة .. أبى لا يعتبر من رجال السياسة ..

وقال بحمى الدين كأنه يلومه :

— ولكن من المعروف أن والدك صديق حميم لرئيس الحكومة ولكل المسئولين .. وقد يستطيع إقناعهم .. ومسئوليّته اليوم ليست مسئولية عامة ولكنها مسئولية خاصة جداً .. لأنها مسئولية عن ابنه .. لقد أصبحت منا ومعنا ..

وقال مصطفى كأنه يقاوم :

— إنى لا أتحدث مع أبى في أى موضوع سياسى .. ولا يجمع بيننا أى رأى .. كلانا متباعد عن الآخر ويفكر لنفسه ..

وقال بحمى الدين محاولاً أن يقتنع مصطفى ولو اضطر إلى أن ينافقه :

— إن والدك حتى لو لم يكن محترفاً سياسياً .. ولم يتول أى منصب رسمى .. إلا أنه يعتبر شخصية شعبية .. كل الشعب يعرفه .. ولن يرفض أن يكون وسيطاً بين الشعب والحكومة .. إن ما نطالب به يطالب به الشعب كله .. ولو استطاع أن يقنع الرئيس بالإفراج عن المعتقلين .. ولو استطاع أن يحدد معه موعداً ليستمع إلى

مثل الطلبة .. فلن نلجأ إلى المظاهرات والمسيرات ولن يضطروا إلى تسليط البوليس للاعتداء علينا .. إنى كما ترى من أنصار السلام .. ولن يتحقق السلام العالمى إلا إذا تحقق السلام الداخلى بين الحكومة والشعب ..

واشترك في المناقشة كل الحاضرين .. وكلها مناقشات حول دفع والد مصطفى إلى مطالبة رئيس الوزراء بالإفراج عن المعتقلين .. وكانت آخر كلمة قالها مصطفى :

— سأحاول ..

وقام ليعود إلى بيته ، وصاح فتحى :

— سأقود لك سيارتك ..

وقال مصطفى وهو منصرف :

— شكراً .. سأقودها بنفسى حتى أتعود على القيادة وأنا مجروح ..

وتهد فتحى كأنه ساخط على فقدان أمله في تحقيق شهوة القيادة ..

ومصطفى يقود سيارته في ببطء كأن آلامه التى تضج في رأسه هى التى تقود .. وكانت السيارة نفسها تتحرك كأنها تتأوه ..

## الفصل الثالث

كان المليونير رضوان الدسوقي جالسا في زهق يقلب الصحف بين يديه وينظر في الصفحات دون أن يقرأ منها سطرا . . إنه في انتظار عودة ابنه مصطفى من الجامعة ليتناول معه طعام الغداء . . والالتفاف حول مائدة الغداء هو الاجتماع الأساسى الذى يجمعه بابنه كل يوم . . فهو فى الصباح يفتح عينيه وعقله كله مشغول بأعماله ويتعجل الذهاب إلى مكتبه حتى لا يستطيع أن يشارك ابنه طعام الإفطار . . وفى المساء يعود إلى مكتبه فى الساعة الخامسة مع الشتاء والسادسة مع الصيف دون أن يحدد متى سيعود إلى البيت . . وعادة لا يلتقى مع ابنه فى المساء . . إن مائدة تناول الغداء هى وحدها التى تجمعه بابنه . . وهو يعتمد الحرص على هذا اللقاء . . بل إن المواعيد المحددة لتناول طعام الغداء تطورت مع تطور موعد انتهاء ابنه من المدرسة ثم من الجامعة . . وهو يعيش كل حياته على مواعيد محددة . . وكان موعد تناول الغداء منذ التحق ابنه بالجامعة فى الساعة الثانية بعد الظهر . . ثم جعله مع تطور دراسة ابنه يبدأ فى الساعة الثانية والنصف . . ثم ارتفع به إلى الساعة الثالثة . . ولكن الساعة الآن بلغت الرابعة ولم يعد ابنه إلى البيت . . ورغم ذلك فهو لا يزال مصرا على انتظاره . .

وليس معنى هذا أن السيد رضوان يعتبر أبا عاطفيا . . يغلبه حبه لأولاده مهما تحمل أى معاناة . . أبدا . . إنه أب معروف بأنه صارم



في جديته . . وهذه الجدية تغلب كل عواطفه حتى بالنسبة لزوجته . .  
ومن جديته أنه يعيش كل حياته وكل يوم من أيامه في نظام مرسوم  
وموعد محدد لكل خطوة تفرضها مسؤولياته . . وهو النظام الذي يفرض  
تناول الغذاء يوميا مع ابنه . . لا ليغطي متعته باللقاء به أو لهفته إلى  
رؤيته أو الإفاضة عليه بكرم الأب وتدليله . . ولكن فقط لأنه يحمل  
مسئولية الاطمئنان على هذا الابن وتتبع أخباره يوما بيوم ومناقشة كل  
ما يطرأ على عقله من آراء أو نوايا . .

وكانت الساعة قد وصلت إلى الرابعة والنصف عندما عاد ابنه  
مصطفى إلى البيت . . وقد فوجيء به الأب ورأسه ملفوف بضاد من  
الشاش الثقيل . . ووجهه متمتع باللون الأصفر . . وإن كانت عيناه  
تلمعان بحدة كأنه لا يزال في معركة عنيفة . .

وكادت تنطلق من الأب صرخة جزع . . ولكنه بذل مجهودا عنيفا  
ليكتم صرخته . . وهو يدور بعينه في تفاصيل كيان ابنه . . إنه  
سليم . . وهو واقف على قدميه أمامه ليس فيه ما جد عليه إلا هذا  
الضئاد الذي يلف رأسه وهذه الصفرة التي تكسو وجهه . . واستراح  
الأب في جلسته وقال وهو يقتعل منتهى الهدوء :

— ماذا حدث ؟

وانحنى الابن وقبل يد أبيه كما تقضى التقاليد المفروضة عليه . .  
وإن كانت قبله سريعة فاترة . . وقال في ثبات :

— لقد قمنا بمظاهرة . . واعتدى علينا البوليس رغم أنها كانت  
مظاهرة سلمية . .

وابتلع الأب ريقه بعد أن عرف السبب في أن رأس ابنه مضممة  
وقال :

— هل انقذت إلى هذه المظاهرة أم كنت موافقا على الدعوة إليها  
والاشتراك فيها . .

وقال الشاب منطلقا في حماس :

— طبعاً وافقت . . بل كنت من قادتها . . واعتدى البوليس  
على . .

وقال الأب مقاطعاً وهو يزفر أنفاس السخط :

— من حق البوليس أن يعتدى عليك . .

وصاح الشاب في وجه والده :

— كيف يكون من حق أن يعتدى علينا في حين أننا لم نعتد على  
أحد ولا على شيء . . لقد قررنا أن تكون مظاهرة سلمية . . حتى  
أننا لم نكن نطلق أى هتاف . . مجرد مرور في الشوارع . . وطبعاً  
الحكومة ستعرف دوافع هذا المرور . . و . .

وعاد الأب يقاطعه قائلاً :

— هل أبلغتم البوليس قبل القيام بهذه المظاهرة . . وحصلتم  
على موافقته ؟

وصاح مصطفى :

— طبعاً لا . . فالبوليس لا يمكن أن يوافق على أى مظاهرة  
سواء سلمية أو غير سلمية . . إلا إذا كانت مظاهرة مؤيدة لرئيس  
الحكومة وتهتف له . .

وقال الأب في لهجة جادة كأنه يلقي درساً على ابنه :

— إن مسئولية البوليس تفرض عليه فض أى تظاهر لم يبلغ به مقدماً ويوافق عليه . . فالمظاهرات تتيح الفرصة ليندس فيها دخلاء لهم أغراض وأهداف أخرى تهدد بالفوضى وتبدد الأمن . . إن كل المظاهرات تنتهى على الأقل بالاعتداء على المحال التجارية ونهبها . . والبوليس هو المسئول عن الأمن . . و . .

وقال مصطفى وهو الذى قاطع هذه المرة صائحاً :

— ولماذا لم يكتف البوليس بحماية مظاهرتنا من الدخلاء دون أن يعتدى علينا . .

وقال الأب في هدوء :

— مادام البوليس لم يكن على علم بهذه المظاهرة مقدماً فمن حقه أن يعتبركم كلكم من الدخلاء . . أى يجردكم من حقيقة أهدافكم وينسب إليكم ما شاء من اتهامات . . وأحب أن أقول لك أن استعداد البوليس لحماية مظاهرة يتطلب وقتاً طويلاً يسبقها بأيام . . ولا تصور أن رئيس الدولة نفسه يستطيع أن يفاجئ البوليس بأى تحرك له بين الشوارع . . بل يجب أن يبلغ البوليس بهذا التحرك مقدماً حتى يستعد لحمايته وحماية المتظاهرين له . . أى حتى رئيس الدولة مضطر لاستئذان البوليس . . وكل الذين يقومون بأى مظاهرة يعلمون أنهم سيواجهون البوليس . . ويتعرضون لفضهم ولو بالقوة . . ولذلك فمعظم قادة المظاهرات يحسبون حساب البوليس ويخطط كل منهم للهرب منه قبل أن يصيبه أى اعتداء . . ونادراً ما يقع الاعتداء على واحد منهم . . بل يتركون الاعتداء ينصب على باقى المتظاهرين

الذين دفعوا بهم إلى التظاهر . . لذلك فانى لا أصدق ما قلته لى من أنك كنت أحد قادة هذه المظاهرة . . فقد اعتدى عليك كفرد عادى خدع وانقاد عفواً إلى تحريض القادة . .

وقال مصطفى وهو يخلق في وجه أبيه كأنه يلومه :

— هذا غير صحيح . . كلنا أصابنا اعتداء البوليس . . وما أصابنى أقل مما أصاب غيرى . . والقائد هو الأقوى إيماناً والأجراً على التحرك للتعبير عن رأيه الذى يعبر عن رأى المجموع . . وأنا مازلت محتفظاً بإيماني . . وانتهى بى اعتداء البوليس إلى أن أصبحت أكثر جرأة على التحرك معبراً عن رأى . . يجب أن نفرض هذا الرأى فهو رأى الشعب . .

وقال الأب في رنة ساخرة :

— ربما لأنك وزملاءك القادة مازلتم حديثين في إقامة التنظيمات السياسية . . فلم تعرفوا ولم تتعودوا على مواقف القادة . . إن تنظيم المظاهرات كت تنظيم كل المعارك حتى العسكرية . . فالقائد العسكرى لا يشترك بشخصه في المعركة ولكنه يكتفى بالتخطيط لها ويبقى خلالها متسترأ في مكتبه وبين حرسه الخاص . . وهكذا قادة الأحزاب أو التجمعات السياسية التى تخطط للمظاهرات . . يحرضون عليها ويخططون لها وهم مختبئون بعيداً عن أن تنالهم يد البوليس . .

وجلس مصطفى بجانب والده السيد رضوان وقال كأنه يرجوه :

— لا تلمنى يا بابا . . ولا تحاسبنى . . ولا تضع وقتنا في مثل هذا الكلام . . فانا في حاجة إليك لتقف بجانبنا بعد أن بدأنا بهذه المظاهرة . .

وقال الأب في حدة :

— هل أخذت رأى في هذه المظاهرة قبل أن تقوموا بها ؟  
وقال الابن وهو محتفظ بهدوئه ويتسم كأنه يحاول أن يغرى أباه  
بإبسامته :

— لقد كنت أتحمل مسئولية وطنية .. وهى مسئولية مفترضة في  
الأبناء والآباء وليست في حاجة إلى الاستئذان ..  
وقال الأب ساخطاً :

— إن مسئوليتك الوطنية يجب أن تجارى بها مسئوليتك عن  
نفسك .. وأنت لست إلى اليوم مسئولاً وحده عن نفسك فأنا مسئول  
معك عنك .. ويوم تنفرد بمسئولتك عن نفسك يكون من حقلك أن  
تنصرف في كل حياتك دون أن تتفق معى أو تستأذن .. ولكنك  
تعيش بمسئوليتى عنك وهى مسئولية تفرض عليك أن تحسب حسابى  
في أى تصرف من تصرفاتك بما فيها اشتراكك في مثل هذه المظاهرة  
الطلابية ..

وصاح مصطفى وإن كانت صبيحة لا تخل باحترامه لأبيه :

— لقد كنت أنت الدافع الأول والأقوى لاشتراكى في هذه  
المظاهرة ..

وقال الأب في دهشة :

— أنا لا يمكن .. لم أكن أعلم شيئاً عن هذه المظاهرة ..

وقال الابن وهو يخفى عينيه عن أبيه كأنه يخشى أن يواجهه بها :

— إنى معروف بين كل الطلبة بأن أبى صديق لرئيس الدولة  
ولرئيس الوزراء ولكل الوزراء .. إنك معروف بأنك صديق للحكومة  
رغم أنك لست أحد المسؤولين عن الحكم .. وقد أردت أن أثبت لكل  
الطلبة أن صداقة أبى للحكومة ليس معناها رفض المطالب الشعبية  
الوطنية .. ولا رفض الاشتراك في التعبير عن هذه المطالب بأى وسيلة  
من وسائل التعبير بما فيها القيام بمظاهرات شعبية .. أردت أن أنفى  
عنك باعتبارى ابنك ومثلاً لك أن صداقتك للحكومة تعنى  
الاستسلام لها وتأييد انحرافاتا .. وقد اعتمد على الطلبة في هذه  
المظاهرة كأنهم يعتمدون عليك أنت .. ووضعونى في مقدمة القيادة  
كأنهم اختاروك أنت زعيماً .. فانا أنت ..  
وقال الأب ساخراً في مرارة :

— كل ذلك وأنا لا أعلم ولا أدري ولا أنتظر شيئاً .. كأنك  
أصبحت أنت المسئول عنى .. أنت الأب وأنا الابن .. أنت الأب  
الذى يحرص على رسم صورة ابنه أمام الناس .. أى صورته أمام  
زملائك الطلبة أصحاب السيادة ..

وقال الابن كأنه يستجدى أباه أن يصدقته :

— أبداً يا بابا .. إن زملائى يتصورون أنى لم أنضم إليهم  
إلا تعبيراً عن موقفك أنت .. وبعد أن استشرتك واتبعت نصائحك  
ونلت موافقتك ..

وصاح الأب مقاطعاً في سخط :

— هذه مصيبة .. فكأنهم اعتبرونى معارضاً للحكومة .. ناقماً  
عليها .. أو لعلهم أخبرت من ذلك فرغم أنهم يتصورون أنى

لا يمكن أن أكون معارضا للحكومة إلا أنهم خدعوك بضمك إليهم حتى يستغلوا اسمك واسمى في إقناع الناس بأنه حتى مؤيدى الحكومة قد انقلبوا عليها واشتركوا معهم في الثورة عليها .. وقال مصطفى وكأنه لا يزال يستجدى :

— أبدا يا بابا .. إنهم يعترفون بصداقتك للحكومة .. الصداقة المنزهة التى لا تستسلم للأخطاء ولا تعتبر مسئولة عن اعتداءات الحاكم على الشعب المحكوم .. بل إنهم يحاولون استغلال هذه الصداقة للوصول بالحكومة إلى الطريق الصحيح .. وقد طلبوا منى أن أطلب منك أن تتحدد لهم موعدا ليجتمعوا بك ويعرضوا عليك مطالبهم وآراءهم حتى تتوسط لهم لدى الحكومة .. على الأقل لإقناع الحكومة بالإفراج عن المعتقلين وعدم تسليط البوليس للاعتداء عليهم بعد أن اعتدى على ابنك .. أى على أنا .. وقال الأب وهو أشد سخطا :

— إنى لست مسئولا عن لقاء الطلبة ومناقشتهم ولا حتى مجرد الاستماع إليهم .. ثم ماذا أقول لوزير الداخلية لو قررت أن أذهب وأرجوه ألا يترك البوليس يعتدى على ابنى .. إن كل ما أستطيع أن أقوله هو أن أعذر له نيابة عنك .. أعذر عن اشتراكك في هذه المظاهرة .. وأقول له أنك انتقدت إلى هذه المظاهرة عفوا دون قصد .. ثم أتعهد له بأنك لن تعود أبدا للاشتراك في مثل هذه المظاهرات .. فهل تقبل أن أعذر للوزير باسمك .. وهل توافقنى على التعهد بأنك لن تعود إلى الاشتراك في المظاهرات .. وقاطعه الابن في حدة :

— لا .. إنى لا أقبل الاعتذار للوزير .. وقد أتردد طويلا فى أن أقبل اعتذاره هولى .. فانا لم أبدا بالاعتداء على البوليس .. ولكن البوليس هو الذى بدأ بالاعتداء على .. ثم إنى لا يمكن أن أتعهد بعدم الاشتراك فى أى مظاهرة أخرى يقررها الطلبة .. فنحن لا نلعب ونحن نتظاهر حتى نفلح عن هذه اللعبة .. ولكننا نقوم بما تفرضه علينا المسئولية الوطنية .. وهى مسئولية تفرض تحمل الاعتداء علينا حتى لو وصل الاعتداء إلى حد الاستشهاد فى سبيل الوطن .. وقال الأب وهو يلوى شفتيه قرفا :

— إذن فلا يمكن أن أحداث الوزير فيما حدث لك .. وإذا بدأ هو بإبلاغى أنك اشتركت فى المظاهرة .. فسأرد عليه بأنى لم أكن أعرف وأنى فوجئت .. وربما قلت له أنى أعانى من أن ابنى مجنون .. وكل ما أريده منك هو ألا تتجاهل مسئوليتى عنك .. وتركنى أعانى من هذه المسئولية أو أتخلى عنها ..

وقام الابن منطورا وابتعد عن أبيه محتفيا فى غرفة أخرى .. وبعد دقائق دخلت زوجته عفاف فى خطوات عصبية وصاحت فى كلمات مرتعشة :

— لماذا لا تريد أن تتصل بالوزير لتبلغه بما حدث لابنى .. وقال السيد رضوان فى تصميم :

— لن أتصل بأحد .. وما حدث قد حدث .. وقالت الأم بصوتها المرتعش :

- سأتصل أنا بصفية هانم حرم الوزير .. كيف يتركون البوليس يضرب ابني ..  
وقال في برود :

- افعلى ما شئت .. ولن اعتبر نفسى مشغولا ..  
وبالمنااسبة .. إن ابنتا حرمانا من أن نتناول الغداء حتى الآن ..  
وقالت زوجته وهى تدبر له ظهرها :

- تفضل .. الغداء جاهز لو كنت تستطيع أن تأكل وابنك مضروب ورأسه مشقوق ..

\*\*\*

ووجد الأب نفسه جالسا على مائدة الغداء وحده .. فابنه راقد في غرفته مع رأسه المضروب وبجانبه أمه .. إن النظام الذى يعيش عليه قد احتل .. ثم إن الساعة قد وصلت إلى الخامسة .. ويبدو أن مجرد الإخلال بالنظام يؤثر على أعصاب بطنه .. لقد تعودت هذه البطن أن تأكل في الساعة الثالثة فإذا تجاوزتها دون أن تأكل انقبضت وانكمشت ولم تعد تقبل أى طعام .. ورغم ذلك فهو جالس يمد يده إلى الطعام ويلقى به في فمه دون أن يتذوقه .. وهو ساهم كأن في عقله زوبعة يستسلم لها ..

لماذا لا ينتظر أن يشترك ابنه مصطفى في الحياة السياسية التى يعيشها الطلبة .. ولماذا فرجى كل هذه المفاجأة ؟

إنه هو شخصيا قضى كل أيام دراسته وهو يعيش الحياة السياسية التى يعيشها الطلبة .. ولكنه كان يعتمد عدم الاشتراك في المظاهرات

التي تطوف الشوارع وتنتهى بانطلاق المارك مع البوليس .. ورغم ذلك فقد استطاع أن يقيم لنفسه شخصية بين الطلبة كأنه واحد من الزعماء .. فقد كان من أبرز الطلبة في دراسته وفهم كل الشؤون السياسية .. ومن أحرصهم على تقدير كل الأوضاع والأحداث التى تتعلق بها يمكن أن يثير إحساس الطلبة بمسئوليتهم الوطنية .. كما كان معروفا بأنه محدث لبق ..

بل كان كثيرا ما يقف خطيبا بين الطلبة ويستطيع أن يدفعهم إلى الاقتناع بما يكون قد قرره .. وكان معروفا عنه أنه خطيب هادئ .. لا يصيح بكلماته .. ولا يختار الكلمات المثيرة الصارخة .. ولا يطلق هتافات يرددها الطلبة وراءه .. بل كان يتحدث أو يلقي خطابه كأنه أستاذ يلقي درسا يعتمد على كشف الوقائع والأهداف .. ولم يطالب أبداً بأن يخرج الطلبة إلى الشوارع في مظاهرة أو يطالب بإعلان الثورة .. ولكنه كان واثقا من نفسه إلى حد أنه كان يعلم مقدما ما سينتهى إليه كلامه .. قد ينتهى بأن يقنع الطلبة بالخروج في مظاهرة .. أو قد ينتهى بتكوين جماعة تقوم بعملية وطنية سرية .. أو قد ينتهى كلامه بأن يقرر الطلبة تأجيل التحرك في انتظار ما يمكن أن يحدث .. أى أنه كان أحد الموجهين لكل تحركات الطلبة دون أن يظهر بنفسه في الصفوف الأولى .. ودون أن يشترك في تنفيذ أى عملية .. إن كل مسئوليته كانت مقصورة على أن يفكر .. وينقل أفكاره إلى جموع الطلبة ..

وكل ما كان يحرص عليه هو علاقاته الشخصية بأفراد الطلبة .. وخصوصا الأفراد الأكثر تطرفا أو الذين وصلوا إلى مراكز قيادية .. وقد نجح في أن يكسب ثقة الجميع وصدقاتهم .. ربما لأنهم كانوا

لا يعتبرونه منافسا لهم في اتخاذ مظاهر الزعامة بين الطلبة .. مجرد  
أستاذ يقف خلف الصفوف ويستطيعون أن يستغلوا أفكاره وكلماته في  
التزود بدوافع مقنعة للقيام بمظاهرة أو وضع هتاف جديد يثير  
المتظاهرين .. ولكن

لماذا لم يكن يشترك بشخصه في المظاهرات أو في أى عملية وطنية  
يقوم بها الطلبة ؟

هل كان جباناً يخاف على نفسه من مواجهة البوليس .. مما قد  
ينتهى بتعرضه للضرب كما ضربوا ابنه أو قد ينتهى إلى اعتقاله ..

أبدا .. إنه لا يعتبر نفسه كأنه كان في شبابه جباناً .. وقد كانت  
أجهزة البوليس قد حددت قوة تأثيره على الطلبة .. وربما كانت قد  
سجلت بعض أحاديثه في اجتماعاته بين الطلبة وتأكدت من مسؤوليته  
في إثارتهم .. حتى أنه في إحدى الأمسيات اصطاده أحد ضباط  
البوليس .. وقال له فوراً :

— لعلك تعلم بما يعده زملاؤك الطلبة للقيام به صباح الغد ..

ورغم أنه كان قد عرف أن الطلبة سيقومون بمظاهرة متفق عليها  
بين قيادات كل كليات الجامعة وكان واحداً من الذين أوحوا بقيام هذه  
المظاهرة .. إلا أنه أجاب الضابط في هدوء وبصوت خفيض :

— لا أعلم شيئاً ..

وقال الضابط وهو يبتسم ابتسامة تقطر بالسخط :

— سواء كنت تعلم أو لا تعلم فإننا نعرف أن لك تأثيراً كبيراً على

زملائك من الطلبة .. وتستطيع أن تتصل بهم الآن وتقتنعهم بالعدول  
عن المظاهرات التي ينوون القيام بها غدا ..  
وقال رضوان وهو محتفظ بهدوئه :

— أنا لم أشترك في أى مظاهرة .. ولا أعرف أحداً من الذين  
يتظاهرون ..

وقال الضابط في حدة كأنه يبصق في وجهه :

— إنى لا أرجوك ولكنى أحذرك .. فنحن نعتبرك أحد  
المسؤولين عن كل ما يجري في الجامعة ..

وابتعد عنه ضابط البوليس .. وظل هو محتفظاً بهدوئه كأنه لم  
يفاجأ باتهام خطير .. وكل ما فعله في اليوم التالى أنه لم يذهب إلى  
الجامعة ولم يحاول أن يلتقى بأحد من زملائه .. وقامت مظاهرات  
الطلبة .. قوية مدمرة .. وضرب البوليس الكثيرين منهم حتى نقل  
بعضهم إلى المستشفيات كما اعتقل الكثيرون .. وهو لم يضرب ولم  
يعتقل .. ولا حتى عاد البوليس واستدعاه ليؤكد اتهامه بها حدث ..  
رغم أنه لم يغير بعدها موقفه بين الطلبة ولم يعدل عن إمدادهم بأفكاره  
وكلها أفكار ثورية ..

ومد رضوان الدسوقي يده والتقط لقمة من مائدة الغداء وألقى بها  
في فمه .. وأخذ يمزغ فيها وهو لا يحس بمذاقها .. ساهم في  
ذكريات شبابه ويسائل نفسه .. كيف استطاع أن يقيم من نفسه هذه  
الشخصية التي تزاوَل كل حقوقها الوطنية .. وتعيش كل الأحداث  
السياسية .. دون أن تعرض نفسها لسخط الحكومة وصب اعتداءات  
البوليس عليها ..

وابتسم ابتسامة حزينة مسكينة وهو يتذكر والده المرحوم . . إن أباه هو الذى كون فيه هذه الشخصية . . لا لأنها الشخصية التى ورثها عنه بل لأن واقع الحياة التى عاشها معه كانت تفرض عليه هذه الشخصية . .

كان أبوه موظفا نافها لم يتم تعليمه ولا يحمل شهادة . . وكان من بين الموظفين الذين يقفون فى الممرات على أبواب باقى الموظفين . . مجرد خادم . . ومرتبته كما كان يعلم لا يتجاوز ثمانية جنيهات وربما ارتفع إلى عشرة فى أواخر أيامه . . كان فقيرا . . وكان مسئولاً بفقره عن حياة عائلة تضم أربع بنات وصيبا واحدا ، ورغم كل ما يعانیه من فقره فقد كان يعيش هدفا واحدا وهو أن يتم ابنه تعليمه . . أن يدخل ابنه الجامعة التى لم يدخلها هو . . وقد عمر به أيام مجوع فيها وتجويع معه العائلة كلها . . ولكن لا يمر يوم دون أن يذهب ابنه إلى المدرسة . . وقد كان أبا نظيفا طاهرا لا يقبل على نفسه أن يرتكب إثما يحصل به على ما يكفى حياته . . ربما كان كل ما يقبله ويتمناه بينه وبين نفسه هى الإكراميات أو البقاشيش التى يجود بها عليه موظفو الوزارة . . وقد كان محبوبا بينهم . . وقد يغالون فى استغلاله لخدمتهم ولكنهم يأمنونه ويحترمونه . .

ومنذ بدأ رضوان الدسوقى يعى الحياة وهو يعيش مرتبطا بإحساسه بوالده . . لا يخطو أى خطوة إلا وهو يحسب حسابه . . هل يرضى والده أم لا يرضى . . هل يستطيع والده أم لا يستطيع . . ولم يكن فى حاجة إلى مناقشة والده أو استئذانه ليخطو خطواته . . إنه منذ البداية يحس بأن حياته كلها تنطلق من حياة هذا الأب . . ووجد نفسه يعرف أنه أب فقير . . وأنه يشقى منتهى الشقاء ليوفر له الحياة . . لذلك فقد كان يحس حسابه تلقائيا . . حتى وهو جالس

يأكل . . فقد كان يحتفظ من رغيف العيش الذى أمامه بقطعة للرجية التالية حتى يوفر على والده من نفقات إطعام العائلة . . ومنذ دخل المدرسة وهو يركز كل جهده لينجح فى كل امتحان . . إنه لورسب فى امتحان فيسكلف والده نفقات عام دراسى آخر . . ونجح . . ونجح . . إلى أن وصل إلى الجامعة . . وكان ذاتها وبفضل مساعى والده يلتحق بالمدارس مجانا . . وبعد أن دخل الجامعة كان يسير على قدميه من إمبابة حيث يقيمون إلى الجامعة فى الجيزة حتى يوفر ثمن تذكرة الأوتوبيس . .

وربما كان هذا الاحساس بوالده هو الذى دفعه لتكوين شخصيته بالنسبة لنشاطه السياسى الذى واجهه منذ كان طالبا فى المدرسة الثانوية . . فهو رغم أنه وجد نفسه ممثلا بالاحساس الوطنى ومن هواة تتبع الأحداث السياسية والبحث عن أسرارها وفهمها إلا أنه لم يشارك فى أى مظاهرة أو أى تحرك سياسى لا لأنه لا يريد أن يعرض نفسه للبوليس ولكنه لا يريد أن يعرض والده للمتاعب . . فهو إذا ضرب فكأن والده هو الذى ضرب . . وإذا اعتقل فكأن والده هو الذى اعتقل . . وإذا ضاع عليه العام الدراسى فكأن هذا العام ضاع على والده . .

وزفر المليونير رضوان الدسوقى أنفاسه وهو يستعرض ذكرياته متأوها كأنه يتألم وهو يستعرض حال ابنه . .

إن ابنه مصطفى شخصية أخرى . .

إنه يشترك فى المظاهرات ويواجه رجال البوليس ليضربوه ويعود إليه مشقوق الرأس . .



ربما لأن ابنه لا يحس به ولا يحسب حسابه .. كما كان هو يحس  
بأبيه ويحسب حسابه ..

لا شيء فيه يدفع ابنه إلى الإحساس به .. أو يدفعه إلى الإيهام  
بأن حياته هي نفس حياة أبيه .. أو يدفعه إلى تصور أن أباه يعاني  
في سبيله حتى يراعى ألا يسبب له متاعب أكثر ..

★ ★ ★

وهم رضوان الدسوقي أن يمد يده مرة أخرى ليلتقط لقمة ولكنه  
تنبه فجأة كأنه أفاق من خيالاته .. ونظر في ساعته .. إنها  
السادسة .. تأخر عن موعد الذهاب إلى مكتبه .. أن ابنه يلحظ  
كل النظم التي وضعها ليعيش فيها وبها ..  
وانطلق خارجا من البيت كأنه يجري ..  
وسمع صوت زوجته تجري وراءه صائحة ..

— تحدثت مع صديقة هانم في التليفون وحكيت لها الحكاية  
لتحكيتها للوزير .. وقد ذهلت .. كيف يجروا البوليس على ضرب  
ابن رضوان الدسوقي .. و ..

وكان قد أغلق الباب وراءه بعنف كأنه يكتنم صوته حتى  
لا يسمعها ..

## الفصل الرابع

لم يستطع الأب رضوان الدسوقي وهو في مكتبه أن يركز كل عقله  
على الأوراق التي تعرض عليه .. وقد تعود ألا يشغل عقله  
إلا بموضوع واحد إلى أن ينتهي منه وينتقل إلى موضوع آخر .. حتى  
وهو صبي ، ثم في شبابه وهو لا يزال طالبا كان لا يشغل عقله بأى  
موضوع حتى لو كان موضوعا خاصا بحاله إلا بعد أن ينتهي من  
المذاكرة التي يزود بها عقله بها هو مفروض عليه .. كان يستطيع أن  
يركز كل عقله ساعات طويلة بين الكتب والأوراق التي يدرسها وهو  
بعيد عن كل الدنيا إلى أن ينتهي فيعود إلى الدنيا ويترك الحرية لعقله  
ليفكر في حاله أو في الموضوعات السياسية التي تشغل بال الطلبة  
ويحاول أن يرسم لنفسه خطوطا تحدد كل تصرفاته .. كأنه يخطط لكل  
يوم من أيامه .. بل إنه كان يصل إلى حد اختيار كلمات يقوها غدا  
لأبيه أو لأمه أو يقوها لزملائه الطلبة أو يضمنها خطبة سياسية يفكر أن  
يلقيها في الجامعة .. وهو لا يعتمد كل ذلك .. إنها هو دافع تلقائي  
من دوافع شخصيته الطبيعية التي كونتها ظروف حياته التي  
يعيشها .. ولكنه اليوم وهو جالس في مكتبه لا يستطيع أن يركز عقله  
على الأوراق أو الموضوعات التي تعرض عليه .. إن صورة ابنه  
مصطفى وهو مضروب على رأسه ومضمد بالشاش الثقيل تقفز أمام  
عينيه وتغطي وتحجب عنه سطور الأوراق التي أمامه .. والمناقشة  
العنيفة التي جرت معه ترن كلماتها في أذنيه حتى كأنه لم يعد يكتفى

باستعادة سماعها ، ولكنها تقفز في خياله كأنها حروف مكتوبة فوق حروف الورق الذى بين يديه . . . وكان يقاوم بعنف ليتشغل عقله من سيطرة ابنه عليه ويتفرغ به لعمله . . . وقد يتفرغ فعلا دقيقة أو دقيقتين ثم لا يلبث أن يعود ابنه مصطفى ويغصب أفكاره ويحجب نفسه مستسلما له . . .

وقد ضاق بجلوسه فى المكتب وهم أكثر من مرة أن يقوم منصرفا . . . لعله يستطيع أن يهدأ قليلا وهو بعيد عن مركز مسئولياته . . . سيتمشى فى الشارع المطل على النيل ويترك عقله حرا مع أى تفكير يخطر عليه . . . ولكن لا . . . إن النظام الذى وضعه يفرض عليه ألا يغادر المكتب قبل التاسعة مساء . . . وسيبقى حتى التاسعة احتراما للنظام . . .

وبعد أن غادر المكتب لم يحاول أن يتجه إلى مكان هادئ يعينه على أن يترك الحرية لعقله وأفكاره . . . بل وجد نفسه ملهونا على العودة إلى البيت . . . وهو يحس أنها لهفة على رؤية ابنه مصطفى والاطمئنان عليه . . . ولكنه ما كاد يدخل البيت حتى توقف مترددا . . . إنه لن يسعى بنفسه إلى ابنه . . . يجب أن يقاطعه حتى يتركه مقتنعا بأنه غاضب عليه . . . ويكفى أن يسمع أخباره من أمه . . . ثم إن نظام العائلة لا يفرض عليه أن يرى ابنه فى المساء وقبل أن ينام . . . فهو ليس مجبرا على أن يراه بحكم التعود واحترام النظام . . . ولكنه ما كاد يقترّب بخطواته من غرفة ابنه حتى زابله تردده وتعلبت عليه لهفته . . . وفتح الباب عليه . . . وكان مصطفى راقدًا على فراشه متيقظا وكفاه تحت رأسه مستندا على الوسادة . . . وما كاد يلمح أباه بجانب الباب حتى جذب كفيه من تحت رأسه واستدار راقدًا على جنبه يستقبله بظهرة . . . وقال الأب وهو يقاوم تهدج أنفاسه :

- كيف حالك ؟

وقال الابن وصوته مكتوم بالوسادة :

- الحمد لله . . .

وقال الأب وهو يحاول أن يكون جادا حتى لا يضعف مظهر غضبه على ابنه :

- ألا تشعر بآلام فى رأسك ؟

وقال الابن دون أن يلتفت إلى أبيه :

- لا . . .

وقال الأب كأنه استكمل كل شخصيته وبدأ يفرضها على ابنه :

- خيت أمل البوليس الذى كان يتعنى أن يسبب لك آلاما عنيفة تقنّك بالآ تعود إلى الاشتراك فى المظاهرات .

ولم يرد الابن بكلمة . . . ورفع الوسادة الصغيرة وغطى بها رأسه كأنه يرفض مجرد الظهور فى حضرة أبيه . . .

واكتفى الأب بأن انسحب خارج الباب وأغلقه وراءه كأنه يريح ابنه من نفسه . . . ثم اتجه إلى غرفته . . . وما كادت زوجته عفاف تراه حتى بدأت من جديد تروى له تفاصيل معادنها التليفونية مع زوجة الوزير . . . وهو واقف يخلع ثيابه ولا يسمعه . . . تائها بأفكاره بعيدا عنها . . . وانتهى من ارتداء البيجاما وخرج من الغرفة وزوجته لا تزال تتكلم وتحكى . . . واتجه إلى حيث الثلاجة وفتحها . . . فقد كان نظام العائلة يفرض على الزوجة أن تحتفظ لزوجها بأطباق طعام العشاء فى الثلاجة لأنه لم يكن له موعد للعودة فى المساء حتى تنتظره . . . وطاف

بعينه فيها تضمه الشلاجة ثم اكتفى بأن مد يده والتقط زجاجة صودا . . إنه لا يريد أن يتناول طعاما للعشاء رغم أنه لا يعتبر نفسه قد تناول طعام الغداء . . فالزوابع الثائرة في رأسه زحفت على بطنه وكأنها سدت معدته فلم يعد يطيق أن يأكل شيئا . . واتجه إلى المقعد العريض المريح المخصص ليجلس عليه في الصلاة . . وألقى بنفسه عليه وفي يده زجاجة الصودا وهو هائم مع أفكاره . .

إنه قبل أن يلوم ابنه ومحاسبه على ما فعله يجب أن يلوم نفسه ومحاسبها . . إنه منذ أنجب مصطفى وهو يعتبره قطعة منه . . صورة طبق الأصل له . . ربما لأنه أثبت أنه يستطيع أن ينجح ويصل إلى قمة النجاح الذى أرادته لنفسه فلا شك أن ابنه ولد ليكون ناجحا هو الآخر . . سينجح ويكون فى منتهى الذكاء ومنتهى قوة الشخصية لجرد أنه ابنه . . وقد كان مصطفى يشبهه فعلا فى كل ملامح وجهه وفى طوله وعرضه . . بل كانت له حركات تلقائية كأنه ورثها عنه . . فهو مثله كلما ضحك رفع أصبع يده وهرش على أنفه . . كأنها حركة عصبية يثيرها الضحك . . أو كأنه يغطى خجله من نفسه كلما ضحك . . إلى هذا الحد كان يتصور ابنه كقطعة منه . . وبما أنه منذ طفولته تعمد أن يقيم حياة تكفل له النجاح فلا شك أن ابنه أيضا سيعيش حياة النجاح . . أى كان يثق فى مستقبل ابنه ثقة عمية . . ويعتمد على عقلية وشخصيته اعتيادا كاملا فى نشئة نفسه بنفسه حتى كان لا يبذل جهدا خاصا من ناحيته فى تربية أو تكوين عقلية ابنه وشخصيته . . بل كان هناك تباعد غير مقصود بينهما . . فكل ما يحتاجه الابن تقوم الأم بتوفيره له . . وكل أسرار وتفصيل حياته مع أمه لا معه . . وهو أيضا يكتفى بالأطمئنان على ابنه والإلمام بأخباره

بما يسمعه من زوجته . . وكل ما يجمعهما هو اللقاء على مائدة الغداء . . وقد يخطر عليه سؤال فى هذه الساعة يسأله لابنه . . أو يخطر على ابنه حكاية يروىها له . . وإن كان ما يجمعهما هو فرحة كل منهما بلقاء الآخر . . ومتعة التزود بالنظر إليه . . وإن كان الآن يرجح أن فرحة ابنه بالنظر إليه كانت دائما أقل كثيرا من فرحته هو به . . ربما كان ابنه لا يحرص على لقاء فترة الغداء إلا احتراما للنظام العائلى الذى فرض عليه . .

ورفع الأب زجاجة الصودا إلى فمه وارشف جرعة كبيرة كأنه يحاول أن يخمد بها الزوابع التى تعصف به . . ثم عاد ساهما مستسلما لعصف الزوابع . .

إنه لم يقدر أن شخصية الفرد تتكون وفقا للظروف والحالات التى ينشأ فيها . . لذلك لا يمكن أن يكون لابنه نفس شخصيته ولا نفس اتجاهات عقلية . . لا يمكن أن يرث عنه هذه الشخصية والعقلية حتى لو كان قد ورث عنه ملامح وجهه وخطوط قامته . . فكل منهما قد ولد فى ظروف وحالات تختلف عما ولد فيه الآخر اختلافا كاملا . . لقد ولد هو فى ظروف الفقر وحالات الحرمان بينما ولد ابنه فى ظروف منتهى الغنى وحالات منتهى الشبع . . كان أبوه فقيرا محروما أما ابنه فأبوه - أى هو - ثرى متمتع . .

وهو يذكر أنه منذ وعى فقر أبيه بدأ يعود نفسه على تحمل مسئولية نفسه . . أى بدأ يراعى إعفاء أبيه من تحمل مسئولية عنه . . وكان هذا الإحساس بالمسئولية هو الذى يسيطر على كل فكره وعلى كل حركة من حركاته . . وهو إحساس يربطه بحساسه على ما يمكن أن يمس أباه . . وهو يذكر يوما فى صباه كان واقفا بين صبيان الحارة حول

بائع الدندورمة . . وكل منهم يدفع قرشا ويلتهم الدندورمة المعبأة في قرطاس من البسكوت . . وهو يذوب مشتتها ولسو لحسة من الدندورمة . . ولسانه يجرى بين شفتيه بيللمها كأنه يحرضها على تذوق الدندورمة . . وليس معه قرش يعطيه للبائع . . إن أباه لا يعطيه إلا قرشا واحدا كل يوم خميس حتى يوفر له متعة أجازة الجمعة وقد سبق أن دفع قرشا هذا الأسبوع ثمنا لشراء طبق من حصص الشام تمتع بالتهامه . . فمن أين يحصل على قرش آخر . . وخطر على باله أن يصعد إلى البيت ويدخل المطبخ ويأخذ أحد الأطباق الفارغة ويعود ويعطيه للبائع بدلا من القرش . . لا شك أن الطبق على الأقل يساوى قرشا . . وهو يعلم أن كثيرا من الصبية يأخذون - ولا يريد أن يقول أنهم يسرقون - شيئا من لوازم البيت ليبادلوا عليها ما يريدون شراءه من البائع . . ولكن . . لا . . إنه لو أخذ طبقا فسيضطر أبوه لشراء طبق آخر يتحمل ثمنه . . وقال لنفسه أنه يمكن أن يعطى البائع هذا الطبق كرهينة مقابل قرطاس الدندورمة ويسترده منه في يوم الخميس القادم بعد أن يدفع له القرش الذى يعطيه له أبوه . . ولكن . . لا . . إنه بذلك كأنه يخدع أباه ويغشه ويخون ثقته فيه ويتحدى حالته . . حالة الفقر . . وكانت النتيجة أن حرمه إحساسه بمسئوليته عن نفسه وعن أبيه من مذاق الدندورمة . . بل إنه من يومها وحتى اليوم يرفض تناول الدندورمة كأنه لا يزال يعتبرها محرصا له على الخروج عن مسئوليته عن نفسه . . ومن يومها كره مجرد مذاق الدندورمة . .

وبعد أن نما وعيه أكثر أصبحت كل مسئوليته منحصرة في تحقيق هدف واحد . . حتى لو كان هدفا بعيدا . . وهو هدف التخلص من

الفقر . . وكانت الظروف والحالات التى يعيشها تحميه من أن يقدم على تحقيق هذا الهدف بارتكاب أى إثم أو أى اعتداء أو أى خطيئة . . إنها ظروف وحالات لا يظهر فيها أى خاطئ . . ووالده رغم استمرار فقره لم يقدم أبدا على أى خطيئة تمس شرفه وكيانه النظيف . . لذلك فقد نما وهو يؤمن بأن الطريق الوحيد الذى يحقق الهدف هو طريق النجاح . . وأيضا النجاح النظيف المشروع . . مهما طال هذا الطريق واستغرق من عمره سنوات . . ولذلك فقد كان حريصا على أن ينجح في كل امتحان من امتحانات دراسته . . كما أصبح يؤمن بأن النجاح لا يقتصر تحقيقه على نيل الشهادات بل يجب أن يتعلم أكثر ويفهم أكثر ويكتشف أسرار الحياة . . وأصبحت أقوى هواياته هى هواية القراءة . . قرأ كثيرا وفي مختلف الموضوعات . . وأصبح مترددا على المكتبات التى يستطيع أن يقرأ فيها مجانا . . وهو يحس وهو يقرأ كأنه يتفرج على خفايا العالم . . لا يفرق بين متعة قراءة كتاب ومتعة الذهاب إلى السينما . . فكلاهما يحقق المشاهدة . . مشاهدة العالم . . وكان هناك دائما ما يثيره ليقرا أكثر . . لقد سأل نفسه مرة وهو يستمع إلى الراديو . . كيف يصل الصوت من أمريكا إلى مصر . . إن الأصوات لا تضع ولا تذوب ولكنها تظل معلقة في الهواء الذى يلف كل العالم إلى أن يلتقطها جهاز خاص وينقلها إلى الأسماع . . فكيف اخترع هذا الجهاز وماهى أسرارها . . ووجد نفسه يجرى داخل المكتبات ويقرأ كتباً عن علوم الراديو استطاع أن يكتشف من خلالها كل الأسرار . .

ولم يكن نجاحه في الامتحانات وإدمانه القراءة هما كل ما أوحى إليه به إحساسه بمسئوليته عن نفسه . . لقد وجد نفسه يريد أن يعرف ويكتشف كل أهل مصر . . ويريد أن يدخل كل المجتمعات ليتفرج

على كل مجتمع منها .. المجتمعات الفقيرة حتى منتهى الفقر ..  
والغنية حتى منتهى الغنى .. بل يريد أن يكشف كل أحياء  
مصر .. كل حي له شخصية تختلف عن شخصية الحي الآخر ..  
حي الدراسة والحسين .. وحى الزمالك وجاردن سيتي .. ولم يتعود  
أن يلقي بنفسه على أى فرد أو على أى حي من الأحياء السكنية ولكنه  
كان ينتهز الفرص المحترمة التى تتيح له أن يعرف كل الناس .. وأكثر  
من ذلك .. لقد كان يتطلع إلى التعرف بأشخاص القادة الذين  
يسمع عنهم .. والقادة ليسوا هم السياسيين المحترفين وحدهم ..  
هناك قادة اقتصاديون .. وقادة من العلماء .. وقادة من الفنانين ..  
لقد أحس عندما التقى مرة بيوסף وهبى بنفس إحساسه عندما التقى  
برئيس الوزراء .. وكان أبرز ما وصل إليه هو اكتسابه صداقة كل  
زملائه الطلبة .. رغم اختلاف طبقاتهم واختلاف اتجاهاتهم .. إن  
الصداقة تعتبر عنصرا قويا من عناصر الإقناع .. لذلك كان يستطيع  
أن يقنع بأرائه الطالب الماركسى والطالب الرأسمالى والطالب  
المتدين .. بل إن شخصيته الهادئة التى كانت تبعده عن الاشتراك فى  
أى تحرك عنيف رغم آرائه الثائرة كانت تدفع كثيرا من المسؤولين عن  
الطلبة إلى الالتجاء إليه على أمل أن يستعينوا به على تهدئة تحركات  
الطلبة .. كان ناظر المدرسة يدعوه ويرجوه .. ومدير الجامعة .. بل  
وزعيم الداخلية .. وكل الكبار الذين يمدون أصابعهم داخل مجتمع  
الطلبة لإثارة أو تهدئته .. وهو لم يكن أبدا يخضع لأى واحد من  
هؤلاء الكبار كعميل له .. ولكنه عرف بينهم بالمصارحة الهادئة .. ولم  
يخف عن واحد منهم رأيه لو كان معارضا له .. لذلك فلم يكن الكبار  
يعتمدون عليه اعتمادا مطلقا ولكنهم كانوا لا يصبون عليه نعمتهم لأن  
هدهو يطمئنهم .. وهو لم يكن يهيمه رأى أحد منهم فيه ولكنه كان

يتعلم ويكتشف كيف يفكر كبار المسؤولين .. وما هو أسلوب تعاملهم  
مع الناس وتعامل الناس معهم ..

وكانت هذه الشخصية تمر بها أحيانا نوبات من السخط  
العنيف .. السخط على الفقر الذى يعيش فيه .. ويكاد يقرر أن  
يبارس العنف والهدم تعبيرا عن سخطه .. لماذا لا يشترك على الأقل  
فى مظاهرات الطلبة .. ويقذف الحكومة بالطوب ويحرق سيارات  
الأغنياء ويحطم كل ما تعرضه الدكاكين عما هو محروم منه .. إن  
الدوافع السياسية قد تكون حجة لإطلاق العنف ولكن الدافع  
الواقعى هو السخط على الفقر .. السخط على هذا المجتمع الذى  
يرضى بأن يعيش فيه أناس جوعى يقتلهم الجوع وأناس شعبانون إلى  
حد أن تقتلهم التخممة .. ولكن رضوان كانت له دائما القدرة على  
التغلب على نوازع السخط .. لأنه مؤمن بالطريق الوحيد الذى  
يخلصه من الفقر .. وهو طريق النجاح المشروع .. واستسلامه  
لعوامل السخط قد تسد أمامه هذا الطريق ويبقى دائما فقيرا .. كما  
أنه مقتنع بأن دوافع الحركة الوطنية السليمة لا يمكن أن تنطلق من  
السخط ومن الفقر .. ولكنها تنطلق من الفكر الذى توافرت له  
الدراسة، ووصل إلى القدرة على التقدير الواقعى السليم .. وكل  
الأحداث السياسية بما فيها الثورات الوطنية لم يدفع إليها ولم تحمل  
مسئوليتها الفقراء الساخطون .. حتى لو كان السخط هو الذى يوفر  
لها أساس قوتها .. ولكنها كلها أحداث وثورات دفع إليها وخطط لها  
المفكرون الوطنيون .. وكان الزعيم مصطفى كامل أو سعد زغلول أو  
غيرهما من قادة الأحداث السياسية من الأغنياء الثراء .. حتى لو كانوا  
من الساخطين فلم يكن سخطهم سخطا شخصيا على الفقر ..

ولذلك يجب أن يحرر نفسه من سخطه على فقره ويحرر فكره من سيطرة إحساسه بهذا الفقر .. حتى يتفرغ لتحقيق سلامة تفكيره الوطنى ..

ولم يكن وهو يحلم بالارتقاء فوق الفقر يحصر أحلامه في تصور نفسه .. بل كانت أحلاما تشمل أباه وأمه وأخواته البنات .. إن الفقر ليس حالة فردية ولكنه حالة اجتماعية أقرب ما فيها إليه هو حالة عائلته .. وهو يحلم برفع أبيه عن الفقر كأنه يتمنى أن يعوضه عما عاناه من الإنفاق عليه حتى وصل به إلى الجامعة .. ويحس بمسئوليته عن أمه وأخواته البنات كما كان يحس بمسئوليته عن نفسه .. وقد كان يحمل هذه المسؤولية داخل مسؤولية أبيه .. ولكنه سيفرد يوما هذه المسؤولية ويحقق بها ما لم يستطع أبوه أن يحققه لهم .. وقد قرر أن يحمل هذه المسؤولية منذ اليوم الأول الذى أصبح فيه خريجاً جامعياً .. من يومها قرر ألا يحمل أباه أى مسؤولية مالية عنه أو عن العائلة .. وعلى الأخص مسؤولية الإنفاق .. إنه لم يعد يحمل أباه مسؤولية إنفاق مليم واحد ..

ولم يسع بعد تخرجه في الجامعة ليكون موظفا في الحكومة .. إن أباه عاش فقيراً محروماً لأنه كان موظفاً في الحكومة .. ربما لو كان قد بدأ حياته حراً في أسواق الحياة لما فرض عليه الفقر ... حتى لو كان قد بدأ دون أن يتم تعليمه وكمجرد خادم كما بدأ في الحكومة .. إن الوظائف الحكومية هي أضيق مجال للنجاح وللكتسب الحلال .. بل ربما كانت أضيق مجال لإطلاق الفكر البناء وتكوين ذكاء الفرد في التعامل مع الحياة .. وهو منذ البداية يكره الوظيفة الحكومية ويحتقرها على مختلف درجاتها .. ورفض في إصرار أن يعين معيداً في الجامعة .. فقد كان من أوائل الخريجين الذين يعدهم إليهم بالتدريس

للعلية .. ولكن المعيد حتى بعد أن يصبح مدرسا ثم أستاذا جامعياً هو موظف حكومى .. وهو لن يقبل على نفسه أبداً أن يكون موظفاً حكومياً إلا إذا كتب عليه الله الفشل ..

ومنذ كان طالباً في الجامعة وهو واثق أنه سينجح في الامتحان وسيكون من أوائل الخريجين لذلك فقد سبق تخرجه تكفيره في تحديد مستقبله .. واستطاع بشخصيته الهادئة المهدبة أن يقيم اتصالات بكل من يطمع في الاعتماد عليهم وما يوفر له حق الاختيار بين طرق الحياة .. واختار عقب تخرجه أن يعين محاسباً في شركة المنسوجات .. إنها شركة حرة وليست حكومية .. وهى شركة كبرت وامتدت وتحقق أرباحاً ضخمة .. وهو يريد أن يدرس وهو في داخلها كيف تستطيع شركة صناعية تجارية أن تحقق كل هذا النجاح ..

وقد عين في هذه الشركة بمرتب خمسة وعشرين جنيهاً في الشهر .. يكاد يكون أكثر من ضعف مرتب أبيه الذى مضى عليه أكثر من ثلاثين عاماً وهو موظف في الحكومة .. وقد وضع في جيبه عشرة جنيهات .. إنه في حاجة إلى مبلغ كبير لتغطية حاجته في سعيه نحو مستقبله .. ثم وضع باقى المرتب بين يدي أمه .. فقد خجل من أن يضع نقوداً في يد أبيه .. ورغم فرحة أمه والعائلة كلها بهذا الدخل الجديد الذى جاءهم به الابن .. إلا أنه لم يدر حوله أى جدال ولا تغيير في وضع هذا الابن بينهم .. ولا حتى بالإفاضة في شكره .. ووالده لا يزال يعاتبه ويلومه فقد كان يريد أن يرى ابنه موظفاً في الحكومة .. الحكومة أبقى يا بنى .. وينحنى الابن يقبل يد والده ويقول : اطمئن يا بابا ..

وقد استطاع بسرعة أن يكتسب ثقة أصحاب الشركة وارتقى في

عمله واتسعت مسؤولياته وارتفع مرتبه حتى تعدى المائة جنيه في الشهر .. ووصل إلى أن أقام لنفسه شركة تصدير واستيراد خاصة .. وكلما ارتفع عن الفقر رفع عائلته معه .. وانتقل البيت من حارة نصير بالعباسية إلى الشارع الزاهي بالزمالك .. وكان مصرا على أن يعيش دائما بجانب أمه وأبيه .. حتى بعد أن تزوج وكانت أمه قد ماتت عاش معه أبوه في بيت الزوجية .. وبعد أن مات أبوه أقام له جنازة كبيرة واشترك كبار الشخصيات في تشييع جثمان الرجل الفقير الذي كان خادما في الحكومة يقف في المرات أمام أبواب الموظفين .. وهو يشيع أباه إلى قبر فخم هو الذي كان قد أقامه .. ويسير في الجنازة خلفه وهو فخور لأن أباه مات وهو ليس فقيرا محروما من إحساس المجتمع به .. إن أرقى شخصيات المجتمع تسير وراء جثمان أبيه ..

هذه هي شخصية رضوان الدسوقي .. وهذه هي الظروف والأحوال التي تكونت فيها شخصيته ..

أبدا .. لا يمكن ..

إنه منذ ولد وهو لا يحس بأى نوع من المسؤولية .. ولا تدفعه أى ظروف أو أحوال تحيط به إلى هذا الاحساس بالمسؤولية .. يكفى أن يصبح واء .. واء .. حتى تستجيب له الدنيا كلها ويصل إلى كل ما يريده .. فأبوه لم ينجه إلا بعد أن أصبح ثريا .. وشخصية أبناء الأثرياء تختلف اختلافا كاملا عن شخصية أبناء الفقراء .. إن ابن الثرى لا يحس بأى نوع من الحرمان حتى يحاول أن يستغل كل طاقته البشرية في التخلص منه .. يستغل على الأقل عقله الذى يكون شخصيته حتى لا يستمر محروما .. إن ابنه مصطفى لم يكن فى حاجة إلى عقله ولا إلى مجرد التفكير فى أى مطلب من متطلبات الحياة ..

وقند رضوان الدسوقي تهيدة حزينة .. ربما كان يجب أن يلوم نفسه .. فهو أيضا لم يحمل مسئولية بناء شخصية ابنه مصطفى .. لقد ترك أمه منذ البداية هي المسئولة عنه .. هي التى تزوده بكل الكلمات والصور التى تربي بها عقله .. ولكنها لم تكن تربي فيه شيئا أو تبني منه شيئا .. كانت كأنها جارية له .. يأمرها ولو برمشة عين فتطيع فوراً .. كل الأمهات هن جوار لأبنائهن وخصوصا الأولاد فهن يستسلمن لهم كأنهم أسياذ .. وهو كاب كان فرحا بابنه فرحة كبيرة منذ أنجبه .. ولكنه لم يكن يتعمد أن يعبر عن هذه الفرحة بالاهتمام بتربيته وتتبع بناء شخصية هذا الابن .. كانت كل فرحته محصورة فى زهوهِ وافتخاره بأنه أنجب ابنا لن يعيش الفقر الذى عاشه أبوه .. ولن يعاني الحرمان الذى عاناه أبوه .. وكان يسرف فى الاستجابة لمطالب هذا الابن ويسخو فى الإنفاق عليه .. فهكذا يجب أن يعيش أبناء الأغنياء ..

وكان دائما مطمئنا اطمئنانا كاملا على مستقبل ابنه .. إنه هو نفسه حقق مستقبلا فى منتهى النجاح ولا شك أن ابنه سيرث هذه القدرة على النجاح .. إنه شخصية مستمرة لشخصيته هو .. وإن كان أحيانا يصدف بفشل يلحق بابنه أو بتصرفات شاذة له تتعارض مع اطمئنانه إلى مستقبله .. ولكنه يعود ويقنع نفسه بأن ابنه لم يفشل لأنه غير قادر على النجاح .. ولم يقع فى هذا الشذوذ لأن طبيعته شاذة .. أبدا .. فمصطفى إذا كان يرسب فى الامتحانات المدرسية والجامعية فلمجرد أنه ليس متعجلا النجاح لا لأنه لا يستطيع النجاح .. أما هو فقد كان ينجح دائما لأنه كان متعجلا النجاح حتى يتخلص من الظروف والأحوال التى يعيشها .. أما ابنه فهو لا يعيش ما يدفعه إلى تعجل النجاح .. إنه يعيش مطمئنا راضيا عن كل ظروفه وأحواله



ومن حقه ألا يتعجل النجاح في المدرسة ويشغل نفسه بدراسة الحياة نفسها .. والخوض بنفسه في داخل كل ما فيها .. إنه لا يلعب .. ولا يستهتر .. ولكنه يدرس الحياة .. ودراسة الحياة أهم من الحصول على شهادة مدرسية لا تفرقه عن قيمة باقي الطلبة .. هكذا يعيش كل أولاد الطبقة الثرية .. فكل منهم لديه الوقت الكافي ليتمهل في الحصول على أى شهادة دراسية .. مطمئنا إلى أن معه شهادة الحياة ..

وزفر رضوان الدسوقي أنفاسا ساخطا على نفسه .. لقد تعود أن يلتمس الأعداء لفشل ابنه مصطفى وانحرافاته .. ويختلق منطقا كاذبا حتى يظل محتفظا بثقته فيه واطمئنانه إلى نجاحه في بناء مستقبله .. وليعترف بأن السبب المباشر لكل ما يسببه ابنه له من متاعب وهواجس هو أنه أهمل تربيته وإعداده للمستقبل .. أهمل في بناء شخصية هذا الابن وتكوين عقليته .. وليس هناك سبب لإهماله إلا إنه يعطى كل نفسه وكل حياته لعمله .. ولتحقيق مزيد من نجاحه في تكوين ملايين الجنيهاات والدولارات .. دون أن يعطى من نفسه أو من حياته ما تحتاج إليه عائلته ومن بينها ابنه .. إن كل ما يعطيه هو بعض ما يدره عليه هذا النجاح من هذه الجنيهاات أو الدولارات .. وغروره بنفسه يشمل غروره بعائلته وبابنه ..

ورفع رضوان زجاجة الصودا وسكب ما بقى منها في جوفه .. لعله يهدأ .. ثم قام يسير وزوابعته النفسية تترنح به إلى أن وصل إلى فراشه وألقى بنفسه بجانب زوجته .. لعله ينام ..

★ ★ ★

وفي صباح اليوم التالى ترك فراشه وكانت زوجته قد تركته قبل أن يستيقظ كما تعود .. وبدأ يعد نفسه للخروج إلى مكتبه .. وكان في

لحفة للاطمئنان على ابنه .. كيف أصبح برأسه المضروب .. ولكنه تعمدا لا يسأل عنه .. أو يذهب إلى غرفته ويفتح الباب عليه .. يجب أن يظل محتفظا بحاله بمظهر غضبه وعدم رضائه عنه .. معتمدا على أن يلتقى به صدفة دون أن يسعى إليه .. أو تحدثه زوجته بأحواله دون أن يسألها عنه .. ولكن مرت الدقائق وانتهى من ارتداء ثيابه وتناول إفطاره وهو لا يرى ابنه ولا يسمع صوته ولا تحدثه زوجته عنه .. واضطر أن يسألها وهو يتظاهر باللامبالاة :

— كيف أصبح مصطفى ؟

وقالت زوجته عفاف وهى منقبضة في استسلام :

— خرج مبكرا ..

وارتعش كأن مفاجأة قد صدمته وصاح :

— خرج ورأسه مضروب ولا يزال ملفوفا ؟ !

وقالت الزوجة وهى تتهد في حيرة :

— أكد لى أنه سليم ..

وعاد الأب يصيح :

— وإلى أين ذهب ؟

وردت الأم في استسلام :

— لم يقل لى .. وقد أخذ منى مائة وخمسين جنيها قبل أن

يخرج ..

وصاح الأب :

— ولماذا أعطيته ؟

وقالت وصوتها يتهدج :

— لقد طلب في إلحاح وإصرار .. ولم أستطيع أن أصده عما يريد .. ولكنه كان يطلب خسارة وأقنعته بأن يكتفى بهائه وخمسين .. وقال الأب كأنه يسخر من نفسه :

— وطبعاً لم يقل لماذا يريد كل هذا المبلغ ..

وفتحت الأم عينيها إلى آخرهما مبجلة في وجه الأب كأنها تحذره من أن يتهم الابن أى اتهام وقالت :

— لقد قال لى أنه فى حاجة إلى هذا المبلغ .. وابنى صادق دائماً ولا أستطيع أن أحرمه مما يحتاج إليه ..

وقام الأب من جانب مائدة الإفطار .. وخطا خطوات سريعة نحو الخروج من البيت دون أن يودع زوجته بكلمة .. وهو يردد :

— ربنا يستر .. ربنا يستر ..

وهو حائر تعذبه الحيرة ..

إنه لا يدري كيف ينشأ أولاد الأغنياء وتكون شخصياتهم .. لأنه هو نفسه نشأ وتكونت شخصيته وهو من أولاد الفقراء ..

## الفصل الخامس

ترك مصطفى البيت مبكراً بعد أن دس فى جيبه المائة والخمسين جنيهها التى أخذها من أمه .. وهو يخطو خطوات عاجلة عنيفة كأنه يضرب الأرض بقدميه .. لم يكن يتلصق فى خطواته ويتأهب معها كما كانت عادته .. وحتى عندما ركب سيارته لم يركبها وهو يتشم بينه وبين نفسه متباهياً بهذه السيارة التى تطير به .. ويبحلق بها فور البشر الذى يسير على الأقدام .. أو يتشم وهو مقبل على متعة القيادة التى أدمنها .. لقدلقى بنفسه أمام عجلة القيادة وهو متجهم وفكره مشغول بأراء جادة يحس كأنها آراء فى منتهى الخطورة .. ورأسه مربوط بالشاش الثقيل ولا يزال يضج برنين الآلام التى خلقتها الضربة .. ولكن أفكاره متمكنة منه بقوة تغلب على ما يمكن أن يحس به من الآم .. إنها أفكار جديدة عليه ولم تطرأ على ذهنه أبداً منذ أحس بالوعى وحتى بعد أن التحق بالجامعة وعاش فيها بين الطلبة ثلاثة أعوام وهو متباعد عن زملائه .. أو متعالياً عليهم .. إنها أفكار سياسية تنطلق من إحساس وطنى جارف .. ربما بدأت تستحوذ عليه بعد أن بدأ يجتمع بزملائه فى بوفيه الكلية .. بل إنه من يومها وهو يحس أنه طالب فى الجامعة بعد أن كان يترفع عن اعتبار نفسه مجرد طالب جامعى .. ربما كانت الجامعة لا تحقق شخصية الطالب فيها إلا بعد أن يستوعب إحساسه بمسئوليته السياسية الوطنية .. إن الجامعة لا تمنح الطالب مجرد الدروس العلمية المقررة ولكنها تمنحه

الشخصية التي يستطيع بها أن يتحمل المسؤولية العامة عن كل ما يجري في الوطن أو ما يتعرض له .. مسئولية سياسية .. وهو قد بدأ يحس هذه المسئولية وبدأ يحس بأنه طالب جامعي ..

ولم يكن مما يدور في فكره مراجعة النقاش الحاد الذي جرى بينه وبين والده .. أنه متباعد دائما عن أبيه .. وتعود أن يكون حرا حتى عن أبيه .. بل إنه اليوم يحس بشخصية أبيه أكثر تباعدا عنه .. بل لقد طرأ عليه إحساسه بأن أباه مليونير .. أى شخصية تنتمي إلى عالم آخر غير عالم الغلبة الذي يعيش فيه أغلبية زملائه الطلبة .. وهو حتى الأيام القليلة التي مضت لم يكن يقدر أن أباه مليونير .. يراه شخصا طبيعيا ويعيش معه مجتمعيا طبيعيا كأن كل البشر من أصحاب الملايين ولا يمثلون طبقة شاذة بين طبقات المجتمع الإنساني ..

المهم أنه لم يهتم بأن يشغل فكره بما جرى بينه وبين أبيه من مناقشة .. وكان كل ما يسيطر عليه هو مراجعة ما سمعه في مظاهرة الطلبة أس من هتافات .. إن الهتاف لم يكن قاصرا على رفض رفع الأسعار .. وخصوصا رفع سعر رغيف العيش .. كأن المظاهرة لم تكن لحل موضوع الغلاء فحسب .. فقد كانت الهتافات تشمل مواضيع سياسية أخرى لم يكن يخطر على باله أنها يمكن أن تكون مواضيع يمكن أن تثير ثورة .. لقد كان الطلبة يهتفون .. يا أمريكا لمى فلوسك بكرو الشعب يدوسك .. وكانوا يهتفون .. الصهيوني فوق ترابى والمباحث على بابى .. وهتفوا .. إحنا الطلبة مع العمال ضد تحالف رأس المال .. وهتفوا .. إحنا الطلبة مع العمال ضد حكومة الاستغلال .. و .. وكثير من الهتافات حول موضوعات لم تكن تخطر على باله ولم يكن يتصور أنها يمكن أن تثير الطلبة .. وربما

لأنه لم يكن يهتم بالموضوعات السياسية ولا يشغل رأسه بها .. وقد مضى ليله كله بعد أن فوجيء بهذه الهتافات يحاول فهمها .. ويحاول أن يجد لنفسه موقفا منها .. وخطرت على ذهنه عشرات الأفكار وهو ناثه بينها .. وهو لا يزال يفكر ..

إلى أن وصل إلى الجامعة .. وركن سيارته بعد أن رأى البوليس يحاصر كل الكليات .. وسار على قدميه حتى باب كلية الهندسة فصاح في وجهه عسكري واقف على الباب .. لعله عسكري مخبرات فهو يرتدى ملابس مدنية وليست عسكرية ..

وقبل أن يهم مصطفى بمجادلته وهو يعلم أنه لم يتعود أن يحمل كاريه الجامعة معه صاح ضابط البوليس الواقف قريبا :

— دعه يا عسكري ..

ثم تقدم الضابط بنفسه وصافحه قائلا في رقة :

— صباح الخير .. تفضل يا أستاذ ..

لعله عرفه .. وعرف أنه ابن الشخصية الهامة المليونير رضوان الدسوقي .. أولعل وزير الداخلية بعد أن حادث أمه زوجته أصدر أمرا لرجاله بأن يراعوا وجود ابن رضوان الدسوقي بين الطلبة ..

وكانت الكلية مزدهرة بالطلبة رغم الوقت المبكر .. وشاهدته نهى من بعيد فجرت إليه وقالت له وعيناها متعلقتان برأسه الملفوف بشاشه :

— لماذا خرجت وجئت .. إننا متأكدون أنك في حاجة إلى الراحة .. وكنا ننوي أن نزورك في البيت للاطمئنان عليك ..

وقال مبتسما وهو يحتضنها بعينيه :

— لم تعد لى راحة إلا معكم ..

ورفع يده يضغط بها رنين الألم ثم تقدم نحو الزحام المتجمع في البوفيه .. وقام محيى الدين عبد السلام يستقبله فرحا :

— أهلا بالبطل ..

واندفع إليه الطالب فتحى إبراهيم واحتضنه وأخذ يقبله ثم قال :

— دعنى أقبل رأسك حتى أبارك بها .. كل ضربة وأنت طيب ..

وعاد محيى الدين يصيح :

— هل سمعت بالخبر ..

وقال مصطفى الضعيف الذى تنهكه آلام رأسه :

— أى خبر ؟

وصاح محيى الدين كأنه يزغرد بالقاء خطاب سياسى :

— لقد عدلت الحكومة عن رفع سعر الرغيف .. أرفع أى سعر .. أوقفنا موجة الغلاء .. والفضل ليس لنا وحدنا .. لقد قامت جامعة عين شمس بمظاهرات أعنف .. وجامعة الإسكندرية .. والمنصورة .. وجامعة أسيوط .. وكل الكليات والمدارس حتى أطراف الصعيد .. كما أن العمال .. حتى عمال المؤسسات الحكومية .. قاموا بمظاهرات .. لقد كانت ثورة استطاعت أن تفرض مطالبها على الحكومة .. ولكن بقى شيء ..

إن الحكومة لم تفرج حتى الآن عن المعتقلين وإن لم تفرج عنهم اليوم فقد قررنا أن نقوم بالتظاهر غدا ونفرض عليها الإفراج عنهم ..

واستدار محيى الدين إلى باقى الطلبة مستمرا فى الكلام .. ومصطفى واقف يحاول أن يستوعب ما يقول ونهى بجانبه وهى متعلقة بالنظر إلى رأسه الملفوف فى الشاش كأنها تربت عليه بعينيه .. وقالت ضاحكة :

— لو كنت لم تدفعنى بعيدا عن عصا البوليس لكنت أنا الآن التى تزهر وتتعايق برأس مربوط ..

واكتفى مصطفى بالرد عليها بإبتسامة فاترة .. ، لقد شددت مقعدا من تحت طالب كان يجلس عليه لتجلس عليه مصطفى حتى يرتاح .. وظلت تحاول إضحائه بكلماتها كأنها تعتمد التخفيف عنه .. ولكن مصطفى لا يضحك وكان فكره مشغول بعيدا عنها .. إلى أن توقف محيى الدين عبد السلام فترة فقال له مصطفى هامسا :

— هل أستطيع أن أنفرد بالحديث معك .. إنى فى حاجة لأن أعرض عليك بعض أفكارى ..

وتلفت محيى الدين حوله كأنه يطمئن على الطلبة المحيطين به قبل أن يتعد عنهم لحظات .. ثم صحب مصطفى ووقف بجانب الشجرة القريبة من البوفيه .. ولحقت بها هى .. كأنها لا تسمح لأحد بأن يتفرد بمصطفى بعيدا عنها .. إنها هى المسئولة عنه .. وانطلق محيى الدين قائلا لمصطفى وقد أصبحا تحت الشجرة :

— هل عرضت الموضوع على والدك .. هل سيتدخل بنفسه حتى يجمعنا مع البوليس ..

وقال مصطفى وهو يواجه محيى الدين بنظرة إصرار :

— أرجوك أن تعفينى من أى اتصال بالذى فيما يخصنا .. إبنى  
أنا الذى بينكم وليس والذى ..

وقال محيى الدين فى لهجته الخطابية :

— إننا لا نطلب منه خدمات خاصة .. إننا نطالبه بالسعى لدى  
الحكومة حتى يقننها بمراعاة المبادئ العامة التى تقوم عليها حقوقنا  
فى إطلاق آرائنا .. المبادئ التى تحرم على البوليس الاعتداء علينا ..

وقال مصطفى فى حدة :

— إن أبى لم يتعود أن يتدخل أو يسعى لدى الحكومة خارج  
ما يخص أعماله ..

وصاح محيى الدين :

— ولكن الحكومة اعتدت عليه باعتدائها على ابنه .. أى  
الاعتداء عليك .. وقد يقدر أن كل الطلبة أبنائه .. وهو يحميمهم  
عندما يحمى ابنه .. ابن رضوان الدسوقي .. هو ابن أى مواطن ..

وقال مصطفى فى عنف كأنه يهدد :

— يجب أن تعتبروا أنى معكم بشخصى .. حتى أبقى  
معكم .. أما إذا اعتبرتمونى مجرد ابن الرجل المشهور .. رضوان  
الدسوقي فأنى مضطر أن أبعد عنكم .. وأنا لا أريد من أبى أن  
يحمينى كما أنى لا أفكر فى حمايته ..

وقال محيى الدين كأنه يتراجع معتذرا :

— طبعاً إننا لا نعرف إلا أنت .. ولا يهمننا إلا أنت ..

بل إنك منذ وقفت بيننا ونحن نعتبرك شخصا آخر غير كل ما نعرفه عن  
أبيك .. وإن كنت لا أخفى عنك أننا فوجئنا بأن هذا الابن\* من هذا  
الأب .. والمهم الآن .. لقد قلت لى أنه قد طرأت آراء جديدة على  
أفكارك ..

وابتلع مصطفى ريقه كأنه يسترجع هدوءه بابتلاع ذكر أبيه ..  
وقال :

— إن المظاهرة التى قمنا بها أمس لم تقتصر على الطلبة بعدم رفع  
الأسعار .. وقد سمعت هتافات تنادى بمطالب وطنية أخرى  
كثيرة .. أنا نفسى لم أكن أفكر فيها .. بل إنى لا أفهم موقف الطلبة  
منها .. وماذا يريدون .. حتى أريد معهم ..

وقال محيى الدين مقاطعا :

— إنها كلها موضوعات لا تكف عن مناقشتها .. وستفهمها  
بكل تفاصيلها بعد أن بدأت تشترك معنا فى المناقشات ..

وقال مصطفى فى حماس :

— أنا لا أقصد أن أفهمها وحدى .. بل أقصد أن يفهمها كل  
أفراد الشعب حتى يتخذ منها موقفا واحدا يحقق وحدة كاملة كوحدة  
فى مظاهرات الأمس التى فرضت على الحكومة العدول عن رفع  
الأسعار .. والصحف التى من المفروض أن تكون مسئولة عن تنوير  
الشعب بكل ما يمس الوضع الوطنى لا تبيح عرض هذه المناقشات  
على صفحاتها .. بدليل أنى فوجئت بهذه الموضوعات رغم أنى أقرأ  
الصحف .. أحيانا ..

وقاطعه محيى الدين ساخرا :

— لقد حاولنا أن ننشر آراءنا في صحف الحائط التي تعلق على جدران الكلية .. وكنا قد فرحنا بحصولنا على حق تعليق هذه الصحف وبدأنا نعتد عليها في تكوين المجتمع الطلابي .. ولكن البوليس بدأ ينزع هذه الصحف المعلقة ويمزقها .. ورغم أنهم يدعون أن الخلافات بين الطلبة هي التي تدفع البعض لتمزيق صحف البعض الآخر .. إلا أنه لا شك في أن البوليس هو الذي يأمر بتمزيقها .. بدليل أنه لا يمزق إلا الصحف التي تحمل المعارضة الصريحة ويترك الصحف المهادنة سليمة ..

وانطلق مصطفى قائلا في حماس :

— هناك طريق آخر لنشر آرائنا ..

وعاجله محي الدين قائلا في دهشة :

— أي طريق ؟

وقال مصطفى منطلقا مع حماسه :

— المنشورات .. لقد قضيت الليل أفكر في وسيلة أفهم بها الشعب كله .. فلم أجد وسيلة إلا إصدار المنشورات .. التي تعدنا لاتخاذ أى موقف ..

وقال محي الدين كأنه فوجيء :

— هل تريد أن نوزع منشورات .. إنك تتعمق بسرعة في تحريك المسؤولية الوطنية رغم أننا نعتبرك صديقا جديدا علينا .. ولكنها فكرة تحتاج إلى إعداد طويل .. ولنؤجل المناقشة .. لنلتق بعد أن نخرج في منزل فتحى إبراهيم .. ونتفق على ما يمكن أن نفعله ..

وقال مصطفى في عجلة :

— سأنتظر بسيارتى بعيدا عن باب الكلية حتى نذهب معا ..

وقال محي الدين فورا :

— لا .. لنذهب فرادى حتى لا نلفت نظر البوليس ونثير اهتمامه بنا ..

وخرج مصطفى من الكلية بعد انتهاء موعد الدراسة .. وهو يسير بجانب نهر كما هي العادة .. وسار بها صامتا ونهى هي التي لا تتوقف عن الكلام .. وفي منتهى الحساس لمشروع إصدار المنشورات .. إلى أن وصل إلى مكان سيارته ووقف بجانبها وهو ينظر إلى نهر دون أن يتكلم .. وقالت نهي وهي تسدل جفنها كأنها في حياء :

— سأركب معك مادمننا ذاهبين معا إلى بيت فتحى إبراهيم ..

وكانت المرة الأولى التي تركب نهي بجانبه في سيارته ... وهو سعيد وفرح بها .. وانطلق طول الطريق يتحدث ويروى ما تأثر به من مظاهره الأمل وما بدأ يتكون له من آراء .. وفرحته بها تتغلب على رنين الصداق الذي لا يزال يرن في رأسه .. ونهى تقاطعه كثيرا وتتكلم أكثر كأنها تقاوم اعتدائه على حقها في الكلام .. وإن كانت ترفع عينيهما بين لحظة وأخرى إلى رأسه الملفوف بالشاش كأنها حريصة على استمرار اطمئنانها عليه ..

ووصلا إلى بيت فتحى إبراهيم .. وكان فتحى نفسه قد سبقهم إليه .. ثم وصل محي الدين عبد السلام بمفرده .. ثم لحقه اثنان

آخران من أفراد شلة البوفيه . . مرسى ومرضى . . واكمل عدد المجتمعين . . وقال محي الدين في هدوء :

— إن منشورات كثيرة يصدرها طلبة . . وكل منشور ينسب إلى حزب من الأحزاب أو هيئة من الهيئات . . حتى حزب الحكومة يصدر منشورات . . ونحن لسنا حزبا ولا هيئة إنما نحن فقط مجموعة من الأصدقاء تجمعنا وحدة الرأي . . فما هي الشخصية التي يمكن أن يعبر عنها منشور تصدره . . هل تعتبر أنفسنا حزبا أو هيئة منظمة ؟ !

وقال فتحى إبراهيم :

— لماذا لا نوقع منشوراتنا بكلمة أصدقاء . . إن صداقتنا تشمل أفراد الشعب كله . .

وقال مصطفى وهو جاد كأنه يحمل المسؤولية كاملة :

— إنك تعرف كل الطلبة المسئولين عن كل الأحزاب وكل الهيئات مع اختلاف كل الاتجاهات . . فلماذا لا نحاول إقناعهم بأن تصدر منشورات تعبر عن كل طلبة الجامعة رغم اختلافاتهم . . ونوقعها بتوقيع يعبر عنا كلنا . .

وقالت نهى كأنها تؤيده وهي تنظر إليه معجبة باقتراحه :

— إننا نريد أن تصدر منشورات تعبر عن رأى الشعب لا عن رأى حزب . .

وقال محي الدين عبد السلام وكأنه حائر :

— إنى لم أعود على كتابة المنشورات ولا أدري كيف نكتب . .

وقال فتحى إبراهيم :

— أكتبه أنا . . لقد سبق أن كتبت منشورات . . بل إن . . .  
التي الخاصة التي أحرص على كتابتها كل يوم تعتبر كأنها منشورات يومية . .

وابطلقت نهى صائحة :

— إنى ولو أنى التحقت بكلية الهندسة إلا أنى معروفة بأنى أدبة . . وقد تعودت أن أكتب القصص . . والمنشور القوى الذى يثير الساس هو المنشور الذى يروى قصة . . قصة العذاب الذى نعانیه والظلام الذى يزحف على نهائنا . . و . .

وقاطعها الطالب مرسى كأنه لم يتأثر ببلاغتها وقال :

— المقروض أن تتفق على الموضوع الذى يعرض فى كل منشور . . ثم يكتبه كل من يعتقد فى نفسه أنه يستطيع الكتابة . . ثم يجمع ويراجع كل ما كتب ونتفق على ما يطبع منه . .

وقال محي الدين وكأنه لا يزال حائرا :

— إنى موافق على ما يقوله الأخ مرسى . . ولكن كيف تطبع المنشورات . . وكيف . .

وقال الطالب مرتضى :

— إن زميلنا لويس رمزى يملك والده مطبعة تجارية صغيرة . . يستطيع أن يطبع لنا المنشورات سواء بموافقة والده أو خفية عنه . . وأنا واثق فى وطنية لويس . . إنه أبعدنا تطرفا . .

وقال محي الدين :

— مهما كان فالطباعة تحتاج إلى تكاليف . . إلى مبالغ . .



وانطلق مصطفى قائلاً ولهجة أقرب إلى لهجة رجل أعمال يتعامل مع مشروع من مشروعاته :

— إننا نريد أن تزفحم البلد بمنشوراتنا .. وتنشر بين كل الناس .. وأن نطبع من كل منشور الآلاف إن لم تكن ملايين النسخ .. وأنا مستعد لتحمل كل التكاليف ..

ومع يده في جيبه وأخرج مبلغ المائة والخمسين جنيها ووضعها على المائدة أمام محي الدين وهو يقول :

— هذا مقدم لبدء العمل .. ومستعد أن أقدم أكثر ..

وساد صمت أقرب إلى الوجوم بين أفراد المجتمعين وعيونهم تبحث في الأوراق المالية التي وضعت أمام عيونهم كأنهم مذهولون .. وقال محي الدين بعد أن ابتلع ريقه وهو ينظر إلى مصطفى كأنه يلومه ..

— إننا لا يمكن أن تصدر منشورا ينسب الفضل فيه إلى واحد منا فقط .. إننا يجب أن نعمل بمستولية واحدة مشتركة .. وأرجوك أن تسحب هذه الأوراق المالية وتعيدها إلى جيبك حتى لا تغريتنا بها .. وسنحاول أن نجتمع تبرعات من أصدقائنا الطلبة .. كل على حسب قدرته ..

وابتسم مستطردا ..

— ولا نمانع في أن تكون تبرعاتك هي أضخم التبرعات ..

ومدت محي يدها والتقطت الأوراق النقدية من على المائدة ودستها في جيب مصطفى وهو مذهول .. كأنه صدم بصدمة لم تكن تحظر على باله ..

ثم قفزت محي قائلة :

— عن إذنكم .. يجب أن أعود إلى بيتي ..

ومصطفى يودعها بعينه حتى الباب .. وهو رغم أنه لا يزال في ذهوله يتذكر أنها زوجة منظمة لا يمكن أن تهمل موعد عودتها إلى بيتها .. وزوجها ..

واستمرت المناقشات ساعة حول موضوع المنشورات .. ومصطفى لم يعد يتكلم وهو يحس كأنه فشل في مشروعه .. لقد كان مشروعاً قائماً على أن يخص نفسه بمستولية رأس المال .. ولكن زملاءه يريدونه مشروعاً شعبياً يعتمد على قروش الشعب لا على ملايين أبيه .. ورغم ذلك فهو مقتنع بالاستمرار في التجاوب مع زملائه والتضامن معهم .. كتجربة انتظار النتيجة .. وإلى أين يصل به هذا الطريق الذي يخطو فيه ..

وقام مصطفى منصرفاً وأصر فتحي إبراهيم على توصيله .. ووقف معه أمام السيارة يحتضنها بعينه ويتحسس جدرانها بيديه كأنه يغازل فتاة أخذت له .. وقال :

— هل يمكن أن أقود لك السيارة حتى بيتك .. لأريحك وأنت لا تزال ملفوف الرأس ..

وقال مصطفى وهو يجلس أمام عجلة القيادة :

— شكراً .. إنني يمكن أن أتحمل القيادة .. سلام عليكم ..

وانطلق بالسيارة بينما إبراهيم واقف يتلعب شهوته التي تلور كلها رأت عيناه سيارة يتمناها .. شهوة قيادة السيارات ..

وكان الثلاثة الآخرون لا يزالون في داخل الشقة . . وقال مرسى  
لمرتضى في صوت خافت يقطر ريبته وشكوكه :

— لماذا يحاول مصطفى أن يدفعنا إلى كتابة وتوزيع  
المنشورات . . إنه ليس منا . . إنه ابن أحد السادة ويملك سيارة . .  
ولا يهمه أن تقع كلنا في يد البوليس بالمنشورات . . وطبعاً لن يقع  
جناحه معنا . .

وقال محيى الدين وقد سمع الصوت الخافت :

— سواء كان مصطفى منا أو ليس منا فنحن المسئولون عن  
الموافقة على الفكرة . . والحركة الوطنية تفرق بين الأفكار لا بين  
الأشخاص . . ونحن في معركة مع البوليس مهما كانت الفكرة . .  
ما دامت فكرة لا يقرها البوليس . . ولم نستاذنه في تنفيذها . .

\*\*\*

ودخل مصطفى بيته متأخراً عن الموعد المحدد لتناول طعام  
الغداء . . ورغم أن والده حريص على كل النظم التي تفرض مواعيد  
محددة لكل حياته . . فقد كان في انتظار ابنته كما كان في انتظاره  
أمس . . وواجهه بعنف بمجرد أن وقف أمامه :

— هل قامت مظاهرات اليوم أيضاً . .

وقال مصطفى في أدب :

— لا . . لم تحدث في الجامعة أى مظاهرات . . فقد عدلت  
الحكومة عن رفع سعر رغيف العيش . .

وصاح الأب :

— إذن لماذا تأخرت ؟

وقال الابن في أدب :

— لا شيء . . شغلتنى مناقشات كانت تدور بين الطلبة . .

وصاح الأب :

— ماذا يريدون بهذه المناقشات . .

وقال الابن وكأنه مستسلم لأبيه :

— لا شيء . . مجرد مناقشات عامة . .

وقال الأب كأنه هداً ويحاول إقناع ابنه :

— على كل حال فإن الحكومة إذا كانت قد عدلت عن رفع سعر  
الرغيف استجابة للمظاهرات الشعبية . . فهي لا تستطيع أن تعدل  
عن دفع أقساط الديون وفوائدها التي تهددها بالإفلاس . . وأنتى لو  
أن الطلبة بدأوا في مناقشة موضوع هذه الديون حتى يجدوا حلاً لها  
ما داموا يرفضون رفع الأسعار . .

وقال مصطفى وهو يدارى عينيه عن أبيه كأنه يدارى كذبه :

— إنى لا أشترك في مناقشات الطلبة . . ولا أحاول أى موضوع

الاجتهاد . . إنى أنسى بالاستماع إليهم . .

وقال الأب رضواناً الدسوقي وكأنه يستعطف ابنه :

— لقد اتصل بى اليوم وزير الداخلية . . وتأسف لى عما حدث

اعتماداً البوليس عليك . . واعتذر بأن رجاله لا يعرفونك . .

لا يعرفون من أنت وابن من . .

وقال الابن ولهفته أقرب إلى أن تكون ساخرة :

— لقد شملنى الوزير اليوم بفضلـه .. فقد تركونى أدخل الكلية رغم أنى لم أكن أحمل معى كارنيه الجامعة ..

وقال الأب وكأنه يهدد ابنه :

— لقد طلب منى الوزير أن أحذرک من الاشتراك فى أى تجمع للطلبة .. فإن البوليس سيهاجم أى تجمع بمنتهى العنف ..

وقال الابن متظاهرا بالاستسلام حتى يريح أباه :

— حاضر ..

وقالت أمه عفاف وهى تبسم لابنها كأنها تقبله من بعيد :

— إنى مطمئنة على ابنى مصطفى .. فهو أعقل العقلاء ولا يمكن أن يعرض نفسه لأى اعتداء آخر .. ويجب أن أخذك اليوم إلى طبيبنا الخاص ليكشف على رأسك .. من أدرانى بما فعله برأسك الطبيب الآخر ..

وقال مصطفى فى استسلام :

— حاضر ..

## الفصل السادس

فى صباح اليوم التالى ذهب مصطفى إلى الجامعة متلهفا .. ولم يكن قد جد ما يتلهف عليه ولكنه أصبح متلهفا دائما لمجرد الوجود فى الجامعة بين زملائه الجدد عليه .. وكان رنين الألم قد خف عن رأسه كما كان الطبيب الذى صحبته إليه أمه قد رفع الشاش الملفوف حول رأسه واكتفى بأن لصق ضمادا من جلد « البلاستر » فوق الجرح الذى كان يشق جبينه وكان الطبيب الأول قد ضم الجرح بغرزتين ..

— وكان الأصدقاء مجتمعين فى البوفيه ..

وقال محى الدين عبد السلام بمجرد أن رآه كأنه يعيد إذاعة خبر جديد :

— لقد أفرج عن معظم الطلبة الذين اعتقلوا فى المظاهرة .. ولكن بقى منهم خمسة عشر طالبا لا يزالون معتقلين .. ومن بينهم خمسة من طلبة كليتنا ..

وقال مصطفى فى صوت خافت متردد :

— هل سنقوم بمظاهرة للإفراج عنهم ..

وقال محى الدين فى لهجة زعيم مسئول :

— لنحتفظ بحق التظاهر للمواضيع الوطنية العامة والأخطر .. وإنى أفكر فى الالتجاء إلى المنشورات منذ تحدثنا عنها أمس .. فليكن



— أنا أشطر من مرسى . لقد أخذت من أبى خمسة جنيهات  
بحجة شراء كتاب جديد . .

وأخرج الجنيهات الخمسة من جيبه . .

وقالت هى وهى تطاطىء رأسها كأنها خجلة :

— أنا . . ولا مليم . . يدوبك مصاريف البيت . .

وقال محى الدين كأنه يسخر من نفسه :

— أنا لن أستطيع أن أساهم بأكثر من عشرة جنيهات حتى  
لوبيعت بدلتى الثانية . .

وقاطعه مصطفى فى حدة وهو يخرج من جيبه المائة والخمسين  
جنيها التى لا يزال محتفظا بها .

— إنى أستطيع أن أدفع كل تكاليف المشروع وهذا المبلغ يعتبر  
المقدم . .

وتبادل الزملاء النظرات بين بعضهم البعض . . كأنهم  
يتهامسون . . إن مصطفى لا يريد أن ينسى أو يتجرد من شخصية  
ابن المليونير . .

وصاح فيهم مصطفى كأنه غاضب :

— إذا كنتم تصرون على أن تقوم الحركة الوطنية على المساواة فى  
دفع مصاريف ما نحتاج إليه . . كما قلتم لى بالأمس . . فاعتبروا  
ما أدفعه كأنه سلفة للحركة الوطنية تردونها إلى عندما يتوفر للحركة  
ما تردده إلى .

وقال محى الدين عبد السلام فى صوت متلعثم كأنه يقاوم  
سلامه لرأى آخر غير الرأى الذى أعلنه أمس .

— من المفروض أن كل قرش فى مصر هو ملك للحركة  
الوطنية . . والأغنياء الذين يملكون مزيدا من القروش هم أقرب إلى  
أن يكون كل منهم كأنه بنك يحتفظ فيه الشعب بأمواله . . ومن حق  
الشعب أن يسحب من البنك ما تتطلبه أى حركة شعبية . . أى أننا  
سنعترك بنكا لتغطية ما تفرضه حركتنا الوطنية من تكاليف .  
وقال مصطفى فى غضب :

— أنا لا يمكن أن أكون بنكا . . وإلا كنت بنكا مفلسا . . إنى  
شخصيا لا أملك ولا مليم . .

وقال فتحنى مبتسما ابتسامة كأنها مسمومة بالغيرة :

— إنك تستطيع أن تباع سيارتك لوعجزت عن أن تأخذ من  
والدك ما تريد . . أو على الأصح ما تحتاج إليه الحركة الوطنية . . إنها  
سيارة تساوى الآلاف . . وطبعاً . . سيفتق والدك عليك من أن  
سير على قدميك ويشتري لك سيارة أخرى جديدة . . وعندما تشتري  
هذه السيارة الأخرى الجديدة استشرنى فأنى خير فى السيارات .

ونظر مصطفى إلى فتحنى ساخطا وهو يزفر أنفاسه كأنه يحس بثقل  
مق صدره وقال :

— سبق أن رجوتك ألا تأتى على ذكر والدى فى أى كلام بيننا .

وقال فتحنى فى لهجة حالية ودوده كأنه يؤكد صدقه :

— آسف . . إنى لا أتعمد أى كلام . . ولكننا أصبحنا إخوة  
بأنى أتصور والدك كأنه والدى . . والدنا كلنا . .

وقال محيى الدين عبد السلام كأنه يعتمد أن يأخذهم بعيدا عن هذا الكلام :

— لقد بدأنا فعلا في تلقي التبرعات وأصبحنا في حاجة إلى أمين صندوق .. من يكون منا آمينا للصندوق .. أنا شخصا لا يمكن أن أكون ..

وقال فتحى إبراهيم :

— طبعا مصطفى هو أمين الصندوق .. لقد دفع منذ الآن أكبر مبلغ ..

وهلل الباقون موافقين .. وقال مصطفى بعد أن صمت فترة :

— لا مانع .. مستعد أن أكون آمينا للصندوق الحركة ..

وقال محيى الدين وهو يجمع الجنيهاات التى أعطيت له ويناولها لمصطفى قائلا وهو يضحك :

— هذا أول مبلغ يدخل الخزينة ..

وقال فتحى ميتسا :

— سأضيف غدا خمسة عشر جنيها .. وربنا يوفقنى .. ربنا يستر ..

وقال مصطفى وهو يأخذ الجنيهاات من محيى الدين :

— يجب أن نسجل التفاصيل في دفتر نحتفظ به سرا بيننا ..

ثم نزع ورقة بيضاء من كتاب يحمله وبدأ يكتب بقلمه .. جنيته واحد من مرسى .. عشرة جنيهاات من مرتضى .. مائة وخمسين

حسبها من مصطفى الدسوقي .. وقفزت نهي واقفة قائلة وابتناسمة الرحمة بما انتهوا إليه تلمع بين شفتيها :

— عن إذنكم .. سأذهب إلى المحاضرة ..

ونظر مصطفى إليها كأنها فاجأته بشيء كان قد غاب عن باله .. إنه في الجامعة .. والجامعة تدور فيها محاضرات دراسية .. وأنهى الورقة التى يكتبها ثم نزعها من الكتاب وسلمها إلى محيى الدين قائلا :

— إني لم أوقعها .. ولكنها بخط يدى .. وعن إذنكم .. إن أريد أنا الآخر محاضرة ..

وقال محيى الدين وهو يضع الورقة في جيبه دون أن ينظر إليها .. وضح .. كأنها فرحة الانتصار :

— سأجرى أنا وراء تنفيذ ما اتفقنا عليه ..

وانفض اجتماع الشلة ..

\*\*\*

إن مصطفى يحس كأنه يتحدى نهي .. إذا كانت جادة فهو جاد .. وإذا كانت قد التحقت بالجامعة لحاجتها إلى شهادة عالية .. في حاجة أكبر .. وإذا كانت تواظب على حضور الدروس والمحاضرات حتى تنجح في الامتحان .. فهو يواظب هو الآخر .. صحيح ويحصل على البكالوريوس ويصبح مهندسا محترما .. كأنه .. أن يؤكد لها أن ليس هناك فرق بين الغنى والغلبان .. كلاهما .. هناك الحياة نحو هدف واحد .. ولكنه يعترف بأن كل هذه .. لا تيسر جديدة عليه .. لقد كان يعيش من قبل وهو لا يحس

بالتحدى إلا بين شباب طبقة أولاد الأغنياء . . ويتحداهم في التفوق عليهم بالمغامرات اللاهية العابثة التي يملأون بها حياة كلها فراغ . . إلى أن انضم إلى شلة أولاد الغلابة . . وانتقل إلى حياة أخرى . . حياة ليس فيها أوقات فراغ . . ولا يتحدثون فيها بعضهم بعضا ولكن كلهم يتحدثون الفقر . . وكانت نهي هي أقوى من ارتبط بهم . . ولا يدرى ما ربطه بها . . لا يدرى ماذا يريد منها . . إنه مجرد إحساس بها . .

وانتهى مصطفى من حضور المحاضرات وخرج إلى الفناء ملهوها إلى لقاء نهي . . إلى أن التقى بها تسعى إليه كما يسعى إليها . . وقالت ضاحكة وخطواتها مع خطواته :

— أهلا سيادة أمين صندوق الحركة الوطنية . .

وقال دون أن يتجاوب مع ضحكتها :

— إنى إلى الآن لا أدري ما هي مسؤوليتي . . وما هي مهمة أمين الصندوق ؟

وقالت خلال ابتسامتها الواسعة :

— مهمته أن يدفع . .

وقال وهو يزفر أنفاس الضيق :

— كنت مستعدا أن أدفع دون أن أحمل هذا اللقب وهذه المسؤولية . .

وقالت وقد عادت ضاحكة ضحكتها التي تتمايل معها :

— تريد أن نطمئن إلى تحميلك مسؤولية الدفع . . أصبحت بيننا صاحب منصب رسمي . .

وكانا قد خرجا بمسيرتهما من باب الكلية . . ولم يتجه بها إلى موقف الأتوبيس كما كانت العادة . . بل سار وبلا تعمد نحو سيارته . . ثم وقف بجانبها وهو ينظر إليها كأن من المفروض أن تركب معه . . وقد سبق أن ركب سيارته فلم يعد هناك ما يدفعه إلى تعمد دعوتها إلى الركوب . .

وقالت نهي مبتسمة ابتسامتها الواسعة وإن كانت لهجتها لا تخلو من تردد :

— لقد سبق أن ركب معك السيارة وأنت مضروب . . وأرى أن أركب معك اليوم أيضا حتى لا تضطر أن تضرب نفسك مرة أخرى لتقتنى بالركوب . .

وهو ينظر إليها وهي بجانبه في السيارة ولا يدرى لماذا هو سعيد بها إلى هذا الحد . . لا يدرى ماذا يريد منها . . إنها ليست جميلة . . إنها تبدو أمامه ككوز الذرة المشوى الذي لا يجذبك جماله ولكنه يثير شهيتك للأكل . . إنها تثير شهيته للراحة والشبع وهي بجانبه . .

ومرت بها برهة صمت كأن كلا منهما يحاول أن يعود نفسه على وضع جديد أصبح يجمعهما . . وضعهما منفردين بعيدا عن عيون الطلبة وهي بجانبه في سيارته الخاصة . . إلى أن قال مصطفى في لهجة جادة دون أن يتسم وكأنه بدأ التحقيق :

— لقد قلت لي أنك متزوجة . . منذ متى ؟

وقالت نهي ضاحكة :



— منذ ثلاث سنوات وأربعة أشهر وخمسة وعشرين يوما . .

وقال مصطفى جادا كأنه يرفض أن يشاركها ضحكاتها :

— وقد أصبحت أما . .

وقالت نهى بسرعة كأنها تدافع عن نفسها :

— لا . . لست أما . . لا صبيان ولا بنات . . الوقت لم يحن

بعد . .

وقال مصطفى في دهشة :

— أى وقت تنتظرينه ؟

وقالت نهى وكأن ابتسامتها ضاعت وسط أحلامها :

— الوقت الذى يصل بالعائلة إلى تحقيق دخل معقول ثابت

يكفى لأن أوفر لأبنائى تنشئة مريحة . . إن زوجى عزوز من صغار

الموظفين . . أى من الطبقة التى يسمونها طبقة محدودى الدخل . .

وهو لا يحمل شهادة جامعية . . حتى يطالب برفع مرتبه . . ولكنه

يحاول . . ويكسب من جهده يبذله خارج الحكومة ولكنه لا يزال

يكسب القليل . . وقد فكرت أنا أن أعمل وأكسب . . حتى أوفر

دخلا للعائلة يضمن لى تربية أولادى إذا أنجبته . . وفكرت يوما فى

أن أعمل بائعة فى أحد البوتيكات النسائية . . كما فكرت فى أن أنفرغ

لأعمال التريكو . . فأنا موهوبة بفن التريكو . . وأستطيع أن أكسب

بإنشاج يدى . . ولكنى قررت أن أصبر قليلا إلى أن أنال شهادة

الهندسة . . شهادة صعبة ولكنها توفر دخلا أكبر . .

وقال مصطفى كأنه يقاوم مرارته :

— إنك لا تعتمدين على الله . . لذلك ترفضين وتقاومين أن

تكونى أما . .

وقالت نهى بسرعة :

— إن كل اعتيادى على الله . . ولعلك لا تعلم أنى متدينة

وحريصة على أداء كل الفروض . . بل إنى منذ كنت صغيرة وأنا أتمنى

على الله أن يوفر لى السبل الذى أستطيعه لأؤدى فريضة الحج . .

ولكن الاعتياد على الله هو الاعتياد على العقل الذى وضعه الله فى

أسك . . والعقل يقول لى ألا أصبح أما إلا بعد أن أوفر ما يكفى

لتربية أولادى للحياة التى أريدها لهم . . وزوجى عزوز ليس

متحمسا فى إنجاب أولاد . . ربما كان الارتباط بينى وبينه لا يفتح

شهيقا للإنجاب . .

وقال مصطفى كأنه يريد أن يثير نهى :

— إن الحب بين الزوج والزوجة يفرض عليهما الإنجاب . . كأن

كلا منهما يعيد خلق نفسه من الآخر . .

وقالت نهى ضاحكة :

— إنى لم أتزوج عن قصة حب كالتى تفرؤها فى الروايات . .

وقد قلت لك أن أمى زوجتى وأنا صغيرة خوفا على من البوار . . وأنا

استسلمت للزواج لأنه المصير المكتوب . . وربما كان عزوز

قد تزوجنى لمجرد أن أهله فرضوا عليه استكمال حياته الطبيعية دون

أن يعجز عن استكمالها . . ليس بينى وبين زوجى قصة حب . .

ولكن بيننا تفاهم وقوة احتمال أحدهما للآخر . . وكل منا منفرد بفكره

وآماله وطريقه .. بدليل أننى دخلت الجامعة بينما هو لا يفكر فى الجامعة .. بل يستهن بها ويحتقرها بينه وبين نفسه ..

وقال مصطفى وهو يفتعل ضحكة يدارى بها ما يقصده :

— لو كنا قد تزوجنا .. أنت وأنا .. منذ ثلاث سنوات .. لكان لدينا الآن ثلاثة أبناء .. وكنت أتمنى أن يكونوا ستة .. فإنى أحب التوائم ..

وقاطعته نهى ضاحكة :

— لو كنت قد تزوجت من أمثالك لكانت فضيحة .. ولاهتم بين الناس بأننى اصطدتك لأعيش بملائين أهلك .. ولكنت قد رفضت أن أنجب منك أنت الآخر لأنى لا أريد أن ينشأ أولادى وهم يعيشون بإحساس أن لا فضل عليهم إلا ملايينك أو ملايين أهلك .. وأن أهمهم ليست سوى الوعاء الذى طبخوا فيه إلى أن خرجوا إلى الحياة كوجبة شهية من وجبات الأغنياء .. لا .. أريد لأبنائى أن يعيشوا وهم فخورون متباهون بأهمهم كما هم فخورون متباهون بأبيهم .. ثم ما هى حياتك وما هى حياتى حتى تجمعنا فى حياة واحدة .. كيف تعيش وكيف أعيش .. إن الحياة ليست مجرد عواطف .. إنها طريق .. وكل منا يسير طريقا آخر .. وحتى لو افترضنا الحب فإنى لا أستسلم لعواطفى ولكنى أستسلم لعقلى حتى أحتفظ بشخصيتى ..

وقبل أن يرد عليها مصطفى كان قد وصل بالسيارة إلى ميدان الجزيرة وصاحت نهى :

— قف .. سأتركك هنا .. فلو دخلت بسيارتك فى الحوارى فكأننا نعلن الفضيحة ..

ووقف بالسيارة ونزلت نهى قائلة من خلال ابتسامة واسعة :

— مع السلامة يا سيادة أمين الصندوق .. أراك غدا ..

ومصطفى يتبعها بعينيه وهى تبتعد عنه وكأنه مذهول بها سمعه منها .. ثم بدأ يقود السيارة وهو واقع تحت إحساس بالسخط .. السخط على نفسه وعلى حاله .. إن أباه يلاحقه ولا يستطيع أن يتخلص من الانشباب إليه حتى وهو يتبادل الكلام مع فتاة يرتاح إليها ويريد أن يفصل بها بشخصيته الخاصة .. شخصية مجردة عن أبيه .. لعله لو أراد الزواج يوما فلن يتزوج إلا باسم أبيه لا باسمه .. وبقيمة أبيه لا بقيمته .. وربما كان أبوه هو وحده الذى يحق له أن يختار له العروسة .. كيف يستطيع أن يتخلص من شخصية أبيه ويستقل بشخصيته .. ربما من المفروض عليه أن ينتظر حتى يموت أبوه ويرحمه من الاستيلاء عليه .. ولكن لماذا لا يفصل عن أبيه من الآن .. يخرج إلى طريق يسير فيه وحده .. ويعمل معتمدا على نفسه ليغطي نفقات معيشته .. وكثيرون من أبناء المليونيرات فى أمريكا يستقلون عن آبائهم ويبدأون القيام بأعمال خاصة حتى لو بدأ الواحد كبائع صحف .. بل إن كثيرين من شباب أمريكا يتزوجون وهم لا يزالون طلبة وهم يعملون لكسب عيشهم .. إنه يستطيع أن يفصل عن أبيه ويستقل عن حياته ويبدأ فى كسب رزقه حتى لو بدأ كسائق تاكسى كما يحاول زميله فتحى إبراهيم ..

وبدأت أحاسيسه بالسخط تخور .. ووجد نفسه يستسلم فى ضعف .. إنه لا يستطيع أن يتخلص من شخصية أبيه .. إنه ليس له قيمة إلا أنه ابن المليونير رضوان الدسوقي .. سواء احتاج لهذه القيمة وهو يقضى سهرة فى صالة من صالات الليل حتى يستقبل

بالترحاب الزائد وتتجمع حوله الجرسونات والنساء المحترفات ..  
أو وهو يشترك في اجتماعات الحركة الوطنية بين طلبة الجامعة .. إنهم  
هم أيضا يحصرون تقديرهم له في أنه ابن مليونير .. وربما وضعوه  
بينهم أمينا للصندوق لا تقديرا لقدراته وكفاءته ووطنيته بل تقديرا  
للملايين أبيه ..

والاستسلام يغلبه .. ويكاد ينهر نفسه لهذا السخط الذي يطرا  
عليه .. لماذا لا يعتز ويفخر ويتباهى بأنه ابن المليونير رضوان  
الدسوقي ..

\*\*\*

ونشاط طلبة البوفيه من الأصدقاء يتسع ويحقق نتائج إيجابية ..  
لقد استطاع محيى الدين عبد السلام أن يقنع لويس طبع المنشور في  
مطابع أبيه .. ولكنه في حاجة إلى ثمن الورق الذي سيطبع عليه  
المنشور .. وقد استطاعوا أن يجمعوا تبرعات بلغت سبعين جنيها ..  
وكانت نهى أنشط الجميع في جمع التبرعات .. لقد جمعت وحدها  
ثلاثين جنيها .. ومصطفى حريص على أن يسجل كل قرش يضعونه  
بين يديه .. ويضع أوراق الحساب بين يدي محيى الدين عبد  
السلام .. وهو في نفس الوقت يغطي باقى ما يحتاج إليه شراء  
الورق .. وقد أخذ من أمه مائتي جنيه .. وجمع من البيت عدة  
أجهزة راديو وتلفزيون وفيديو كان يعطيها لفتحى إبراهيم لبيعهما  
ويضم ثمنها إلى رصيد الحركة ..  
ولم يفرج عن الطلبة ..

وصدر المنشور الذى يسجل جملة واحدة .. « افرجوا عن  
المعتقلين » .. فوق ورقة بيضاء طويلة تجمع عليها توقيعات كل

الطلبة وكل العمال وكل من يقبل التوقيع مع ذكر صفته .. ووزعت  
هذه الأوراق على أفراد الشلة .. كما وزعت على قيادات كل أحزاب  
وتجمعات الطلبة والعمال حتى تكون حركة وطنية واحدة تقوم بجمع  
التوقيعات ..

ونهى حملت ألف فرخ من أوراق المنشور لتوزيعها بين صديقاتها  
وزميلاتها الطالبات حتى تشركهن في جمع التوقيعات .. ومصطفى  
لم يحمل أكثر من عشرة أفرخ بدأ يجمع عليها بنفسه التوقيعات ..  
وقد بدأ يجمع توقيعات الطلبة الذين يعرفهم من يوم أن التحق  
بالجامعة ومعظمهم يشتركون في أنهم من أولاد الأغنياء .. ثم حمل  
الأوراق إلى النادى يحاول أن يجمع التوقيعات من أفراد .. ولكن  
كلهم يرفضون التوقيع ومنهم أفراد يصرخون في وجهه :

— ما دخلك في توزيع هذه المنشورات .. أتدرى ما الذى  
يريدونه .. إنهم يريدون خراب بيوتنا والعودة بنا إلى أيام عبد  
الناصر .. أيام الفقر .. يستولون على مالنا ويصبحون هم وحدهم  
الأغنياء ..

ورغم ذلك استطاع أن يجمع عددا قليلا من التوقيعات .. وإن  
كان بعضها كأنها توقيعات هزلية لا تتعدى الشخطة أو كاذبة لا تحمل  
الاسم الصحيح ولا الصفة الحقيقية .. حتى أن أحدهم بعد أن  
سجل توقيعاً مزيفاً كتب صفته بأنه رئيس وزراء المستقبل ..

وقد غامر مصطفى كأنه يحاول أن يفرض نفسه على الحركة  
الوطنية .. وبدأ يطوف بالطلبة العاديين الذين لا يعرفهم .. الطلبة  
الغلابة .. ولكن معظمهم يعرفونه .. إنه ابن المليونير رضوان  
الدسوقي .. وكان كل منهم يتلقى عرضه في دهشة .. ما الذى

أدخله في الحركة الوطنية .. وبعضهم يوقع كمجاملة له .. وبعضهم  
يعتذر بأنه سبق أن وقع لدى طالب آخر .. وبعضهم يتلقاه في حقد  
ويحاول أن يجادله فيهرب مصطفى من أمامه .

وكان أفراد شلة الأصدقاء يجتمعون في المساء في شقة فتحي  
إبراهيم .. ويراجعون التوقيعات التي جمعوها .. لقد جمعوا في يوم  
واحد مئات التوقيعات .. وغدا سيصلون إلى الآلاف .. وقد جمعوا  
الآلاف فعلا في الغد .. حتى أن أفراد الشلة وهم مجتمعون في المساء  
بدأوا بعد أن راجعوا ما تسلموه من منشورات موقعه يناقشون إصدار  
منشور آخر .. إن نجاحهم في توزيع المنشور الأول يدفع إلى إصدار  
منشور آخر فوراً ..

وقال محيى الدين عبد السلام :

— أى موضوع نختاره للمنشور الجديد ؟

وقال مرسى في حدة :

— إن كل حالة البلد مرتبطة بعلاقتنا بأمريكا .. فليكن منشورا  
يدعو إلى التحرر من أمريكا ..

وقال مرتضى :

— إن ارتباطنا بأمريكا يعنى ارتباطنا بإسرائيل .. فليكن  
المنشور ضد كامب دافيد وضد ما يسمى العلاقات الطبيعية مع  
إسرائيل .. إننا لا نقبل أن نكون على علاقات طبيعية مع إسرائيل  
وهي تعتدى على كل الأرض العربية .. فأرضنا عربية ..

وقال فتحي إبراهيم في هدوء كأنه يعرض عبقريته :

— لنبدأ من البداية .. أى من حالتنا الداخلية .. وقد قرأت  
لأحد الكتاب الذين نثق فيهم مقالا أخيرا يقول فيه .. إن مصر  
شعب غنى ودولة فقيرة .. ولنفرض أن هذا صحيح .. ولكن لماذا  
يكون الشعب غنيا والدولة فقيرة .. لأن الغنى لا تحكمه قوانين ..  
ولا تسيطر عليه دولة واعية تفرض الوسائل النظيفة الشريفة في  
الحصول عليه .. ثم توزعه بحيث يضمن سلامة كل الشعب .. إننا  
لا نعيش أى نظم تربط الدولة بالشعب رباطاً صادقا نظيفاً تستطيع به  
أن تكون دولة غنية بشعب غنى .. فلنصدر منشوراً يطالب بارتباط  
الدولة بالشعب .. والشعب بالدولة .. ولنذهب إلى هذا الكاتب  
ونناقشه حتى يوحى إلينا بما نكتبه في المنشور ..

والمناشات لا تنتهى .. والليل يزحف .. ومصطفى يستمع  
ويحاول أن يقيس كل ما يسمعه بما يفهمه عن حالة أبيه .. وعما سبق  
وسمعه من أبيه ..

★ ★ ★

وكانت الساعة قد تعدت الثانية صباحاً عندما دق التليفون في  
بيت رضوان الدسوقي .. وقام المليونير من النوم مغزوعاً ورفع الساعة  
وسمع صوتاً متعجلاً يقول :

— قبض البوليس على مصطفى الدسوقي .. واعتقل في سجن  
القلعة ..

واختفى الصوت من التليفون .. وأعاد الأب سحابة التليفون  
وهو يتلفت إلى زوجته ليطمئن إلى أنها لم تسمع شيئاً .. حتى لا تفزع  
بما جرى لابنها .. وكانت زوجته نائمة .. وهو لم ينم في انتظار  
الصباح ..

## الفصل السابع

لم يحاول الأب أن ينام بعد أن سمع خبر اعتقال ابنه .. وخواطره تعصف داخل فكره .. من الذى أبلغه الخبر بهذه الكلمات الـ أربعة التى حملها إليه التليفون .. لابد أنه أحد الطلبة .. لو كان الذى اتصل به هو أحد المسؤولين لأفاض فى الحديث عن أسباب الاعتقال وعبر عن أسفه لاضطرارهم لاعتقال ابنه معتذرا له .. ولكن .. لعل المسؤولين لم يعلموا بعد أن ابنه كان من بين من اعتقلوهم .. ولينتظر حتى الصباح حتى يتلقى الخبر رسميا .. ولكن .. قد تمر أيام قبل أن يكتشفوا أنهم اعتقلوا ابنه .. فماذا يفعل .. ولكن .. لماذا يفعل أى شيء .. لماذا لا يترك ابنه يتحمل مسؤولية نفسه كما كان هو يتحمل مسؤولية نفسه منذ كان صبيا .. لقد تحمل مسؤولية انتشار نفسه من الفقر حتى وصل إلى منتهى الغنى .. وربما اختار ابنه أن ينتشل نفسه من الغنى حتى ينهار إلى منتهى الفقر .. إن تعريض نفسه للحركات السياسية الطلابية الفوغائية هو أقصر طريق ينتهى به إلى الفشل .. والإفلاس .. والفقر .. حتى لو تركه يرث عنه ملايين فسيضيعها على هذه الحركات .. مقتنعا نفسه بأن يفلس فى سبيل الوطن .. ورغم ذلك فلماذا لا يتركه خرا .. لقد وصل ابنه إلى السن الذى يحتاج فيه إلى الحرية حتى يستكمل شخصيته .. لماذا لا يتركه معتقلا داخل السجن حتى يجتاز تجربة من تجارب الحياة تجعله يختار بعدها طريقه ..

وزفر الأب أنفاسه التي تثقل على قلبه حتى تكاد تسكته .. إنه لا يستطيع أن يترك ابنه سجيناً .. لا يستطيع أن يترك ابنه داخل السجن .. وهو واثق أنه يستطيع أن يفرج عنه باتصاله بالمسؤولين .. وهو قد تعود أن يتعالى على هؤلاء المسؤولين ولا يطلب منهم شيئاً خاصاً ويتركهم هم الذين يطلبون ... ولكن ابنه بدأ يذله أمامهم .. إنه هو الذي سيطلب هذه المرة إسباغ فضلهم عليه .. وحتى لو عجز عن الإفراج عنه فهو مضطر أن يرعاه وهو داخل السجن .. على الأقل ليطمئن على معاملته وكيف يعيش في الزنزانة .. وهل ينال على الأرض المسفلنة أم أنعموا عليه بسرير ينال عليه .. وماذا يأكل .. يجب أن يكون للعائلة حق تزويده بما يأكله ..

واستيقظت زوجته عفاة وهي لا تعرف شيئاً .. وهبت فوراً كعادتها وهي تردد كلمة صباح الخير دون أن تنظر في وجهه وخرجت من الغرفة لتطمئن على ابنها مصطفى في غرفته ..

وعادت إليه مبهورة كأنها تلهث وقالت كأنها تنن :

— مصطفى ليس في البيت ..

وقال متنبها في أسى :

— اطمئني .. إنني أعرف أين هو ..

وصاحت كأنها تصرخ :

— أين ؟

وقال الأب وهو يكظم أسنانه كأنه يخشى أن تقع وتسقط ويتلعلها :

— معتقل .. في السجن ..

وصرخت الأم :

— في السجن .. لقد سبق أن ضربوه .. وهم اليوم يلقون به في السجن .. إنهم يقصدونه .. بل إنهم يقصدونك أنت .. يستخفون بك .. ولا يحسبون لك أى حساب .. كيف يقبضون على ابن رضوان الدسوقي .. إلا إذا كان رضوان الدسوقي لم يعد يساوى شيئاً ..

وانهارت فوق السرير تبكي ودموعها تسيل بين عينيها ..

وقال الأب دون أن يحاول تخفيف دموعها :

— إن من يستخف بي ولا يحسب لي أى حساب هو ابني مصطفى نفسه .. وقد سبق أن ناقشته وحاولت إقناعه بالابتعاد عن الحركات التي يثيرها الطلبة وحذرتني بأبلغني به وزير الداخلية من أن الوزارة ستزداد عنفاً .. ولكنه لا شك قد استهان بالوزير واستهان بي .. استهان بأبيه .. واستمر مع الغوغائية المنطلقة في الجامعة ..

وصاحت الأم ساخطة :

— ليس معروفاً عن مصطفى أن له دخلاً في السياسة .. كل ما هو معروف عنه أنه ابنك ..

وقال الأب كأنه يحدث نفسه :

— إن البوليس يتلقى أوامراً في مواجهة الأحداث دون تفريق بين الأبناء ..

وقالت الأم وهي تمسح دموعها بكم قميص النوم :

— إنني مضطرة أن أعود إلى الاتصال بكوثر زوجة وزير

الداخلية .. لقد أصبح أكرهها .. أحس كأنها تشمت في وأنا  
مذلول لها .. ولكن .. من أجل مصطفى يجب أن أحادثها ..

وصاح رضوان الدسوقي في عنف :

— لا .. لا تتصل بها ولا بأى أحد .. فاهمه .. لا تتصل  
بها .. وسأتصرف أنا ..

وقام من جانبها ودخل الحمام ثم ارتدى ملابسه وطلب فنجان  
قهوة وضعه أمامه وهو يرفع ساعة التليفون .. وحادث رئيس  
الوزراء .. إنه يريد أن يلقاه حالا .. الآن .. قبل أن يذهب إلى  
مكتبه في الوزارة .. ورئيس الوزراء لا يستطيع أن يرفض له أى طلب  
لقاء وفي أى موعد .. إنه ليس مجرد صديق .. إن بينها معاملات  
واسعة .

ووضع رضوان ساعة التليفون .. وشرب فنجان القهوة .. ثم  
قام خارجا دون أن يحى زوجته .. ثم عاد قبل أن يخرج من الباب  
والثفت إليها قائلا :

— قلت لك ألا تتصل بأحد .. اعتبرى الخبر كأنه  
سر عائلى ..

وركب سيارته إلى بيت رئيس الوزراء .. وهو يجمع أفكاره في كل  
كلمة بعدها ليقولها له .. وصورة ابنه وهو داخل السجن لا تفارق  
خياله .. وتعكر أفكاره ..

واستقبله رئيس الوزراء في ترحاب كبير من خلال ابتسامة واسعة  
وبدأه قائلا بعد تحية صباح الخير :

— لقد وصلنى الخبر الآن فقط .. وأنا سألت الداخلية بعد أن  
حدثنى في التليفون .. أى لم يكن أحد قد أبلغنى بالخبر ..

وقال رضوان الدسوقي في مرارة :

— أى أنهم اعتقلوه وهم يعرفونه ويعرفون أنه ابنى ..

وقال رئيس الوزراء من خلال ابتسامته الواسعة :

— لا تدهش .. فإن كثيرا من أبناء أقرب أصدقائنا يشتركون في  
أعمال الفوضى التى يقوم بها الطلبة .. ويتعرضون لما يتعرض له  
الطلبة الباقون مما يتخذة البوليس حيالهم .. كلهم أبناء متعبون ..  
وأقول لك بصراحة أن ابنى أنا نفسى يتعبنى .. ويثير أعصابى ..  
إنه يعتبر نفسه مسلما وأنا كافر .. وقد انضم إلى إحدى الجماعات  
الاسلامية التى تدعى الثورة .. وأطلق ذقنه .. وأصبح يبالغ في أداء  
الفروض الدينية .. حتى أنه أصبح وهو جالس معنا على المائدة  
يتعمد أن يأكل بأصابعه .. لأن الإسلام لم ينص على استعمال الشوكة  
والسكين في تناول الطعام .. وهو طبعاً معارض ورافض لكل  
ما تقرره وتتخذة الحكومة .. حكومتى .. حكومة أبيه .. وهو  
لا يناقشنى .. ربما احتراما لأبيه .. وربما يأسا من أبيه .. ولكنى  
أحس بمعارضته من خلال نظراته التى يواجهنى بها .. كأنه ناثر على  
أو كأنه يحتقرنى . إن هذا الجيل لا يمكن أن يقدر ما نتحملة وما نبذله  
لصيانة البلد وحماية كيانه ..

وقال رضوان مقاطعا :

— ولكن .. هل تتحمل أن يعتدى البوليس على ابنك بالضرب  
أو يقبضوا عليه ويلقوا به في السجن ..



وقال رئيس الوزراء في كمد :

— الذى يحميه من البوليس أنهم وضعوا وراءه مخبرا سرى حتى يحميه من الاعتداء عليه .. وأنا وابنى وكل أفراد العائلة نعيش كما تعلم ونحن مهددون بالاعتداء على أى فرد منا .. ورغم ذلك فإنى أفكر أحيانا فى أن أطلب من البوليس التغاضى عن حمايته والقبض عليه ووضعه فى السجن .. لعله يفيق من نزوته ويتعد عن هذه الجماعات التى تضلله ..

وقال رضوان فى سخط :

— إن السجن لا يفيق الشبان .. بالعكس .. إن من يدخل منهم السجن يخرج وهو أبعد تطرفا ويتأذى بالمجازفة بنفسه داخل الحركات التى يعتبرها حركات وطنية .. كأنه يريد أن يعود إلى السجن من جديد .. إن السجن بالنسبة للطلبة ليس عقوبة ولا يحس به كتهديد لمستقبله .. ولكن السجن بالنسبة لهم بضلة .. وكأنه منح وساما يتباهى به بين الطلبة .. لقد عرفت ذلك منذ كنت أنا نفسى لا أزال طالبا ..

وقال رئيس الوزراء كأنه يهتف بشعار حكومى :

— ليكونوا أبطالا بين بعضهم البعض .. ولكننا لا يمكن أن نسمح لهم بأن يكونوا أبطالا علينا ..

وقال الأب فى رجاء أقرب إلى التوسل :

— إنى لا أحس بأن ابنى وحده هو المسجون .. فأنا نفسى أحس بأنى وضعت فى السجن .. وحتى لو تحملت هذا السجن فكيف أتحمّل حالة أمه التى لم تكف عن البكاء والصراخ منذ قبض

على ابنها .. وهى تعتبرنى المسئول عنه وتكاد تخنقنى بدموعها .. أرجوك .. أفرجوا عن مصطفى .. حتى لو حملتمونى مسئولية تصرفاته ..

ولانت ابتسامة رئيس الوزراء كأنها أصبحت ابتسامة إشفاق وقال :

— انتظر .. دقيقة واحدة ..

ثم رفع سماعة تليفون موضوعه جانبا كأنها نجاة وسمعه رضوان يقول :

— صباح الخير مرة أخرى يا أفندم ..

واعتدل رضوان فى جلسته فوراً .. وبرق وجهه بملامح احترام شديد .. ورئيس الوزراء يردد هامسا فى التليفون .. حاضر يا أفندم .. مضبوط يا أفندم .. صح يا أفندم .. ممكن يا أفندم .. ثم أعاد وضع سماعة التليفون والتفت إلى رضوان الدسوقي قائلاً :

— اسمع يا سيد رضوان .. إن ابنك لم يظلم بالقبض عليه .. لقد كان يشترك فعلا فى إثارة الفوضى وتوزيع المنشورات .. ورغم ذلك فإصدار أوامرى بالإفراج عنه فوراً .. ثقة فىك أنت وبجاملة لك .. وبالمناسبة .. لقد ذكرتى بعملية استيراد اللحوم التى سبق أن عرضتها علينا .. لم يتم منها شيء حتى اليوم .. ويجب أن تتم هذا الأسبوع .. ( واستطرد وهو يضحك ضحكة مفتعلة ) .. حتى لا نفقد ثقتنا فىك وقد نبذ التفكير فى القبض عليك أنت ..

وقال رضوان الدسوقي من خلال ابتسامة مفتعلة :

— شكرا يا ريس .. واعتبر أن صفقة اللحوم قد تمت ..

وخرج من بيت رئيس الوزراء بعد أن كرر شكره .. وذهب إلى مكتبه ودخله وهو يبخلق في عيني كل موظف لديه كأنه يريد أن يضبط من وصله منهم خبر اعتقال ابنه ..

★ ★ ★

وكانت الساعة قد بلغت الرابعة بعد الظهر .. والأب لم يجلس لتناول غدائه ولا الأم .. إنها مصران على أن يتناول ابنها الغداء معها كما تعودا .. وخوف يحتاجها من ألا يحقق رئيس الوزراء وعده بالإفراج عنه اليوم ..

وظهر أمامهما مصطفى بوجه متجهم يكسوه السخط على عكس ماكانا ينتظرانه من رؤية وجهه فرحا بالإفراج عنه .. واندفعت الأم تحتضن ابنها وتقبله وهي تصيح .. الحمد لله على السلامة .. ألف سلامة .. بينما ظل أبوه جالسا في مكانه متجهما بمظهر الزعيم المستول عن العائلة .. ويخفي فرحة تزغرد في صدره بعودة ابنه إليه ..

ولم يتقدم مصطفى لتقبل يد والده على الأقل ليشكره على مسعاه في الإفراج عنه بل ظل واقفا أمامه متجهما بسخطه كأنه يقاوم ما تعود عليه من احترام أبيه ويريد أن ينفث سخطه في وجهه ..  
ويدأ الأب قائلا :

— ما أعجب ما وصلت إليه حتى يقبض عليك وتوضع في السجن ..

وقال مصطفى كأنه لم يعد يستطيع أن يقاوم نفسه :

— لقد فضحت ..

وقال الأب مقاطعا :

— فضحت لأنك دخلت السجن ..

وصاح مصطفى :

— لا .. فضحت لأنه أفرج عنى وحدى دون باقى زملائي الذين قبض عليهم .. لماذا يفرج عنى وحدى .. إنى لست بريئا حتى يكون الظلم قد دفع إلى القبض علينا .. أنا وزملائي .. لقد كنت مشتركا معهم في كل ما قامت به الحركة الوطنية .. إنى متأكد وكل زملائي متأكدون بأنه لم يفرج عنى إلا لأنى ابنك .. وإذا كنت قد سعت للإفراج عنى فلماذا لم يكن الإفراج عنا كلنا .. حتى لا أتعرض لهذه الفضيحة ..

وقال الأب وهو مذعور من تهجم ابنه عليه لأول مرة :

— إنى مسئول عنك .. ولست مسئولاً عن الباقيين ..

وقال مصطفى مستمرا في ثورته :

— إنك مسئول عن العدالة .. والعدالة التى تفرض الإفراج عنى تفرض أيضا الإفراج عن باقى الزملاء .. وإلا كانت العدالة لا تفرج عنى ولا عنهم ..

وقال الأب كأنه يحاول أن يهرب من ثورة ابنه :

— إنى أعرف أساليب الحكومة .. وما دامت قد أفرجت عنك حتى لمجرد مجاملتى فسيضطرون إلى الإفراج عن باقى زملائك حتى لا يتهموا بهذه المجاملة ..

وقال مصطفى وهو يتعد عن أمه وأبيه :

— من يدري .. وقد كان الواجب أن نبقي كلنا في السجن أو نخرج كلنا منه .. حتى لا أتعرض لهذه الفضيحة ..

وصاح الأب كأنه لم يعد يحتمل ثورة ابنه :

— أى فضيحة تقصد ؟

وقال الابن وهو يتعد :

— فضيحة أنى لا أساوى إلا أنى ابن رضوان الدسوقي ..

ولاحقته أمه كأنها لا تأبه بما يقال :

— ألا تتناول معنا الغداء ..

وقال وهو يدخل غرفته وقبل أن يقفل الباب وراءه :

— لقد أكلت مع زملائي داخل السجن ..

وأغلق الباب بعنف .. وسمعت أمه صوت المفتاح وهو يدور في القفل .. كأنه قرر أن يسجن نفسه في غرفته حتى يفرج عن زملائه من السجن الكبير ..

★ ★ ★

وألقي مصطفى نفسه على فراشه كأنه وقع صريع الهزيمة .. هزيمته في أن يقيم لنفسه شخصية مستقلة عن أبيه .. شخصيته كطالب حر مكافح يتحمل مسؤولية فرض قوته لإنقاذ مصير الوطن .. وهو كشخصية مستقلة عن أبيه دخل السجن .. ولكنه لم يبق فيه إلا ساعات حتى فرضت شخصيته المقيدة بأنه مجرد ابن لأبيه نفسها على المسؤولين فأفرجوا عنه وحده دون باقى الأبناء لأباء آخرين ..

ماذا حدث ليلتها ؟

لقد استمر اجتماع شلة الأصدقاء في شقة فتحى إبراهيم حتى الساعة الثانية صباحا وهم يناقشون موضوع المنشور الجديد الذى قرروا إصداره .. ثم فجأة داهم البوليس الشقة وقبض عليهم كلهم .. واستسلموا صاغرين هادئين .. كأنهم لم يفاجئوا .. رغم أن معظمهم يقبض عليه لأول مرة .. وكانت أم فتحى وأبوه قد استيقظا على ضجيج البوليس .. ووقفت الأم مبهورة وعيناها معلقتان في جزع وشفتاهما تتحركان دون كلام .. كأنها تردد في داخلها آيات من القرآن أو دعوات لله .. وأبوه واقف مبجلقا في ابنه وحده دون من حوله ، وهمس والبوليس يشده خارجا :

— شد حيلك ياابنى ..

لم يودعهم في الشقة صراخ أو عويل أو أى محاولة لتحدى عساكر البوليس .. كأن ما حدث يعتبر حدثا ظاهريا تتعرض له دائما حياة الناس .. حياة الناس الغلابة ..

ولكن .. كيف عرف البوليس أنهم يجتمعون في شقة فتحى إبراهيم .. ومن أبلغهم .. هل بينهم جاسوس من جواسيس البوليس .. إنه لا يدري .. وقطب مصطفى حاجبيه وعلت وجهه ملامح السخط وقد مر عليه خاطر أسود .. ربما اتهمه زملاؤه الأصدقاء بأنه هو الذى كان ينقل أخبار اجتماعاتهم إلى البوليس .. أنه الوحيد الغريب عنهم وعن حياة الغلابة .. إنه ابن المليونيير الذى يتعارض مع كل ما في حياته مع كل ما في حياتهم .. ثم سأل مصطفى نفسه .. ترى هل كان البوليس يمكن أن يفاجئهم ويقبض عليهم لوكانوا مجتمعين في بيته هو .. بيت المليونيير رضوان

الدسوقي .. لا يظن ... كان كل ما يمكن أن يحدث بعد أن تصل أخبار هذه الاجتماعات إلى البوليس هو أن يتصل وزير الداخلية بأبيه ويرجوه أن يحرم على ابنه عقد هذه الاجتماعات في بيته .. حتى يضطر الطلبة إلى عقد اجتماعاتهم في مكان آخر يستطيعون مهاجمتهم فيه .. وضغط مصطفى على شقيقه كأنه بعض نفسه ويلومها .. لقد كان يجب أن يدعو زملاءه إلى عقد اجتماعاتهم في بيته حتى يحميهم ويحمي نفسه معهم .. فبيته أكثر أماناً من بيوتهم .. والاجتماع في داخله أقوى تضليلاً للبوليس .. فمن يصدق أن يعقد اجتماع ضد الحكومة في بيت صديق الحكومة المعروف ..

وهو لم يأبه ساعة أن قبض عليه مع زملائه .. لم يجزع ولم يرتعد .. وبالعكس .. أحس كأنه يزداد فخراً بشخصيته المستقلة .. وأحس كأنه يتباهى بوصوله إلى قمة البطولة الوطنية .. وكل زملائه لم يأبهوا بالقبض عليهم .. ومنذ أن جمعهم البوليس في السيارة الكبيرة التي حملتهم إلى سجن القلعة وهم يتضحكون .. ويتبادلون النكات .. لم يعكر على واحد منهم حتى ذكر ماسيبيب عائلته عندما تفاجأ بأن ابنها غاب عنها .. لا بد أنهم سيعرفون ماذا حدث لأبنائهم .. إنه حدث يتعرض له كل أبناء الغلابة .. ثم بعد أن جمعهم السجن في زنزاناتهم وألقوا بأنفسهم فوق الأرض العارية وفي يد كل منهم بطانية ألغاهوا الحارس في وجهه .. لا يزالون يتضحكون ويتبادلون النكات .. ولا يحاولون النوم .. بل إنهم بعد أن شبعوا من الضحك بدأوا يناقشون في جدية مشروع المنشور الجديد الذي قرروا إصداره ..

إلى أن كان صباح اليوم التالي .. وارتفعت ضحكاتهم وصرخوا

بالنكات وهم يتبادلون أطباق العدس الأسود والأرغفة التي تبدو كأنها مخلفات عجل جاموس .. ورغم ذلك يأكلون في نهم كأن مجرد وجودهم معا يفتح الشهية .. وكانت الساعة قرابة الظهر عندما دخل عليهم ضابط من ضباط السجن ونادى على اسم .. مصطفى رضوان الدسوقي .. ثم ابتسم له ابتسامة محترمة عندما انتصب مصطفى أمامه .. وقال في أدب :

— تفضل معي ..

وساد صمت مفاجئ على كل الأصدقاء .. ولا يدري مصطفى كيف قدروا فوراً أنه استدعى للإفراج عنه .. والإفراج عنه وحده .. إنهم لا ينسون أنه ليس منهم .. ثم ارتفع صوت سامي وهو يضع بالغيط من هذه المفاجأة :

— لا تنس أن تطمئن عائلتي ..

وقال مرتضى كأنه يسخر منه :

— سلم لي على أمي .. قل لها إن كلها يومين وأعود إليها لتفريح بي ..

وشده محيى الدين عبد السلام من جانب الضابط وهمس في أذنه :

— إنني احتفظ بالباقي من أوراق المنشورات في البيت .. وأخشى أن يفتشوه .. قل لنهي أن تتصل بأختي وتأخذ المنشورات خارج البيت أو تحرقها ..

ولم يحاول ضابط السجن حرمانه من تلقى هذه الهمسات كأنه

يحترمه منتهى الاحترام .. إلى أن خرج به من الزنزانة .. وفتحن  
إبراهيم يصيح وراءه من خلال ضحكة عصبية :  
- لاتنس أن تأكل لى قرطاس دندورمه .. فإننى فى شوق  
للدندورمه ..

واستمرت إجراءات الإفراج ساعات وهم يعاملون مصطفى كأنه  
ضيف هام .. فإن أمر الإفراج عنه وصلهم من مكتب الوزير فلا بد  
أنه شخصية هامة .. حتى أن مأمور السجن أصر على أن يقدم له  
كوبا من الشاى وهو جالس فى ضيافته .. ومصطفى يعانى من ثورة  
نفسية تمزق صدره .. كيف يفرج عنه وحده .. وماذا سيقول عنه  
زملاؤه وكيف سيواجههم .. حتى بدأ يفكر فى أن يرفض الإفراج عنه  
إلا مع زملائه .. ويصر على أن يبقى فى السجن معهم .. ولكن هل  
من حقه أن يرفض الإفراج ويفرض نفسه على الحكومة كسجين ..  
إنه يبقى فى السجن مطالباً بالعدالة .. فلما أن يبقى كل المشتركين فى  
عمل واحد داخل السجن .. وإما أن يطلق سراحهم جميعاً .. ولكن  
متى كانت الحكومة حريصة على العدالة ..

وظلت الثورة مشتتة فى صدره حتى وجد نفسه خارج السجن  
ثم داخل البيت .. واشتدت ثورته حتى أعلنها فى وجه أبيه .. ثم  
هرب منه وسجن نفسه فى غرفته .. وألقى نفسه راقداً على فراشه  
الوثير وصورة زملائه وهم راقدون على أسفلت الزنزانة تلح على خياله  
حتى تكاد تطلق دموعه ..

وبدأ يسائل نفسه .. هل يذهب إلى كليته صباح الغد .. كيف  
يواجه الطلبة وهو الوحيد الذى أفرج عنه .. ربما ثار عليه الطلبة  
واتهموه علناً بأنه هـ الذى وشى بزملائه إلى البوليس وهو مطمئن أنه

لن يسجن معهم .. وربما عادوا يصوبون عليه نقيمتهم ويعايرونه بأنه  
ابن المليونيير المعروف رضوان الدسوقي .. وأنه لا يمكن أن يكون  
منهم أو يكون غلصاً صادقاً فى أى حركة وطنية يقومون بها .. وربما  
اعتدوا عليه حتى يفرجوا عن تمنياتهم بالاعتداء على أبيه وأمثال  
أبيه .. إنه لن يستطيع أن يدخل الكلية وحده حتى لو التف حوله  
فيها بضعة من الطلبة المنافيين الذين يعرفهم .. المنافقون لأصحاب  
الملايين وأبنائهم ..

لا .. لن يدخل الجامعة إلا بصحبة زملائه بعد الإفراج  
عنهم ..

ولكنه يريد أن يرى نهى .. ولو لمجرد إبلاغها بالرسالة التى  
حملها له محبى الدين عبد السلام .. كيف يراها ويلقاها ؟  
وأمه تعود بين حين وحين وتقر على باب غرفته وهى تصيح باكياً  
مستجدياً حتى يفتح لها .. لمجرد أن تراه وتطمئن عليه .. إلى أن  
غلبته شفقتة عليها وفتح لها الباب .. وجلست ملتصقة به وهى  
لا تكف عن الكلام .. وهو لا يستمع إليها .. لا يحس بيديها وهى  
تتحسس وتربت عليه .. بل إنه استسلم إليها منقاداً وهى تشده إلى  
المائدة لتناول طعام العشاء .. وتركها تدس اللقم فى فمه كأنه طفل  
غير قادر على إطعام نفسه .. وعقله كله ساهم .. هل يذهب إلى  
الجامعة .. وكيف يقابل نهى .. ثم كأنه ضاق بهذا الاستسلام لأمه  
فقفز من أمامها .. ودخل غرفته وأغلق الباب وراءه بالمفتاح حتى  
يطمئن إلى أن والده لن يفتحه عليه كعادته بعد أن يعود من عمله كل  
مساء ..

ى ضائعاً مع أفكاره التى تنهك عقله ..



وفي الصباح الباكر خرج مصطفى من البيت وقد تعمد ألا يرى أباه وإن كان قد مر بأمه كأنه يودعها .. وركب سيارته .. وهو لا يدري إلى أين .. كل ما يريد ألا يراه أحد أو يرى أحدا .. كأنه يستتر على فضيحتة .. فضيحة إفراج الحكومة عنه وحده .. وجرى بالسيارة في سرعة جنونية إلى أن وصل إلى صحراء الهرم وتوقف في ركن .. وألقى نفسه غارقا في أفكاره .. ثم خاف على نفسه من الزهق من وحدته ومن ثقل أفكاره عليه فانطلق بالسيارة إلى طريق الفيوم .. وانطلق فيه بالسرعة المجنونة .. إن قيادة السيارة تخفف من عذاب فكره .. إنه يقود هذه السرعة كأنه مستسلم لكرابيح تنهال على ظهره وتعذبه عذابا يلهمه عن أفكاره التي يتعذب بها ..

وكانت الساعة قد تعدت الواحدة وقاربت الدراسة في كلية الهندسة على الانتهاء .. فعاد بسيارته ووقف بها قريبا من أبواب الجامعة .. وبحيث يستطيع أن يرى محطة الأنوبيس التي تعودت نهي أن تنتظر فيها لتعود إلى بيتها .. وبعد فترة لمحها من بعيد وهي قادمة .. فانطلق بسيارته إليها ووقف بها قبالتها حتى كاد يدهمها وصوت الفرامل يزقق كأنه يصرخ ..

وقالت نهي بمجرد أن شاهدته في فرحة :

— هل أفرج عنكم ؟

وقال متعجلا :

— أرجوك .. اركبي .. الأمر مهم ..

وتلفت نهي حولها كأنها تحاول اكتشاف من يقربها ثم قفزت إلى داخل السيارة جالسة بجانبه وقالت :

— إنني لم أر أحدا من الزملاء الأصدقاء داخل الكلية ..

ولم يرد عليها مصطفى مباشرة وقاد سيارته بسرعة مبتعدا عن عيون الطلبة ثم وقف بها تحت الكوبري القريب .. وقال وهو يزفر أنفاسه ودون أن يواجهها بعينه :

— لقد أفرج عنى وحدي ..

وشهقت نهي كأنها صدمت وقالت في سخط :

— وحدك .. لماذا وحدك .. لأنك ابن صاحب العزة والفقامة والسيادة المليونيير .. أما باقي الزملاء فهم من أولاد الغلابة .. ومن حق سيادتك أن تكون حرا .. أما هم فليس لهم حق الحرية .. وقال مصطفى وهو ينظر إليها في لوم :

— إنهم أكثر حرية مني .. إن من حقهم أن يبقوا في السجن .. أحرارا في السجن .. أما أنا فقد أفرج عنى رغم أنفى .. إنهم لا يزالون في السجن محتفظين بأرائهم .. أما أنا فإن البوليس لا يعتبرني كأني صاحب رأى إنما الرأى المفروض على هورأى أبى .. كأنهم أفرجوا عن أبى لا عنى ..

وقالت نهي وهي تبتسم هذه الابتسامة الواسعة التي تعودت أن تظلل بها مناقشتها .. ووجهها متجهم بضج بالسخط :

— متى أفرج عنك ؟

وقال في صوت خافت كأنه خجل من فضيحتة :

— أمس ..



وقالت نهى كأنها تسخر منه دون أن تخفف عنه ابتسامتها :

— أى بقيت فى السجن ساعات .. هذا كثير على أبناء الطبقة المدللة .. ولكن لماذا لم تدخل اليوم الكلية ليكون لقاؤنا طبيعيا ..

وقال مصطفى وكأنه ناغم على نفسه :

— لم أكن أستطيع أن أواجه الطلبة بعد أن أفرج عنى وحدى .. وأواجه نعمتهم .. ولكنى عرضت نفسى لمواجهة نعمتك لثقتى فى صداقتك ولأنى تعودت عليك ناقمة على ..

ثم التفت إليها كأنه استطاع أن يقاوم نفسه وقال فى حزم :

— دعينا الآن من هذا الكلام .. فهناك ما هو مطلوب منك .. إن محبى الدين عبد السلام يريدك أن تذهبى إلى أخته وتبحثا عن كمية باقية من أوراق المنشورات لا يزال يحتفظ بها .. وتقوما بحرقها أو تهريبها لأنه يخشى أن يقوم البوليس بتفتيش البيت .. ومرسى ومرضى يطلبان الاتصال بعائلتهما وطمأنتهما على أنها يعاملان معاملة طبيعية داخل السجن ..

وقالت نهى فى حماس كأنها قررت التطوع فى حرب :

— سأبدا الآن بزيارة أخت محبى ..  
ومد مصطفى يده فى جيبه وأخرج مجموعة من الأوراق المالية وقال وهو يناولها لنهى :

— هذه تسعون جنيها بقيت من حساب الحركة .. احتفظى بها معك ..

وقالت نهى وهى تنظر إليه كأنها لا تفهمه وتقبض كفها حتى لا يلقى فيه بالبلغ :

— إنك مهما كان ما حدث لا تزال أمينا للصندوق .. وأنت المسئول عن توفير أى مبلغ يخص الحركة ..

وقال مصطفى فى تصميم كأنه لا يقبل المناقشة :

— لقد قررت أن أبتعد عن كل ما يتصل بالحركة ما دام زملائى فى السجن .. ورغم أن والدى وعدنى بالإفراج عنهم قريبا إلا أنى لست مطمئنا لوعده .. وأغلبية الأصدقاء لم يكونوا معنا فى ليلة اجتماعنا فى شقة فتحى إبراهيم ولم يقبض عليهم .. وقد يفكرون فى إصدار منشورات، بل يجب أن يقوموا بحركة إلحاح للإفراج عن الأصدقاء .. وهم فى حاجة إلى تمويل هذه الحركة .. (وابتسم ابتسامة ضعيفة مستطردا) .. اعتبرى نفسك نائبة أمين الصندوق ..

وقالت وهى تفتح كفها لتلقى المبلغ كأنها وافقت :

— هل هناك مطالب أخرى ..

وقال مصطفى وهو ينظر إليها مبتسما فى رجاء :

— إنه مطلب خاص .. لا أدرى إذا كان من حقى أن أطلبه أم لا .. فإن موعد الامتحانات قد اقترب .. وأنا مصمم على أن أنجح هذا العام ..

وقاطعته نهى ساخرة فى مرارة :

— لماذا لا تنتظر أن يفرج عن باقى الشلة حتى تتقدموا إلى الامتحان معا وتنجحوا معا .. حتى لا تنجح وحدك كما أفرج عنك وحدك ..

وقال وهو يحنى رأسه مستسلما لتهجمها عليه :



- إنهم وهم في السجن أصبح من حقهم أن يطلبوا الكتب  
ويقضوا الوقت في المذاكرة ويتقدموا للامتحان .. كثيرون من الطلبة  
نجحوا وهم داخل السجن .. وأنا سأسجن نفسي داخل بيتي ..  
وهو سجن أعنف وأقسى من سجنهم .. لأنه سجن انفرادي ..  
وسكنت نهى وهى تلوى شفتيها كأنها قرفانة واستطرد مصطفى  
قائلا :

- إننى أتمنى لو أسبغت على جيلا وأنا مسجون بأن تتصلى  
بالمزلاء ليعطوك أوراق المحاضرات لأسجلها لنفسي وأعيدها إليهم  
ويحددوا لك مواضيع الدروس التى تلقوها وأنا غائب عنهم حتى  
أدرسها .. فقد قررت ألا أتصل بأى زميل مها كان صديقا .. كما  
أنى أرجو ألا تصارحيهم بأنك تجمعين هذه الدروس والمحاضرات من  
أجلى .. إننى واثق أنك تستطيعين التحايل عليهم .. لوقبلت أن  
تأسرينى بهذا الجميل ..

وتوقفت برهة كأنها مترددة ثم قالت وهى تمد يدها تفتح باب  
السيارة :

- سأحاول ..  
وقال بسرعة :

- سنلتقى هنا غدا .. تحت الكوبرى فى مثل هذه الساعة ..  
وقالت وهى تقفز من السيارة :

- لا .. ليس غدا .. بعد غد ..  
وصاح يستوقفها :

- انتظرى إلى أن أصل بك قرب بيتك ..

وقالت دون أن تنظر إليه :

- لا .. هذا يكفى ..

وأسرعت فى خطاها مبتعدة عنه كأنها تهرب من المموم التى صبها  
عليها ..

\*\*\*

## الفصل الثامن

كان الأب رضوان الدسوقي جالسا في انتظار ابنه مصطفى ليتناول معه طعام الغداء كما كانت عادته .. ولكن هذه العادة أصابها الخلل منذ أيام طويلة .. وقد أصبح ابنه لا يجلس معه ليتناول الغداء .. بل إنه يتعمد ألا يجتمع به أبدا .. وهو يعلم أنه الآن في البيت مختف عنه في غرفته مدع أنه متفرغ لدراسته وأنه سبق أن تناول الغداء وحده .. وأمه تؤكد له أنه فعلا تناول الغداء وحده قبل أن يعود أبوه من عمله .. ورغم ذلك فالأب لا يزال يجلس منتظرا ابنه .. إنه لا يستطيع أن يتنازل عن إحساسه بالنظام الذي فرضه على نفسه وعلى العائلة .. إلى أن تحين الساعة التي يحددها هذا النظام لتناول الغداء .. ولا يجد دافعا يدفعه إلى الإخلال بالنظام وأن يمد في ساعات انتظاره كما كان يفعل كلما غاب عنه ابنه .. إنه يائس من أن يعود إليه ابنه .. ويضطر إلى الجلوس إلى المائدة مع زوجته وحدهما .. يلقي باللحقات في جوفه وهو هائم مع ابنه كأنه في حالة حب مقهور ..

وكان لا يكف عن سؤال نفسه .. ماذا يريد من ابنه وماذا يريد له .. وهو لا يريد له إلا أن يعيش في قمة الطبقة الاجتماعية .. طبقة السيادة والشراء .. بعد أن قفز به من الطبقة التي عاش هو ووالده فيها .. طبقة الخدم الغلبة المستسلمين .. ولكن .. أين هي اليوم طبقة السيادة والشراء .. إنه هو نفسه بعد أن أصبح يملك كل هذه

الملايين لا يعتبر نفسه ممثلا لطبقة .. إنه لا يمثل إلا نفسه .. ولا يزال يعيش وهو مهدد لو تخلى عنه ذكاؤه لحظة أن تضع منه ملايينه ويطرده شر طردة بعيدا عن مسؤولياته ويعود غلبان شحاذا كما كان أبوه .. إن مصر لا تحكمها طبقة اجتماعية ذات سيادة إنما يحكمها مجرد مجموعة من الأفراد .. كل فرد قائم بذاته .. وأيام زمان .. أى قبل الثورة .. كانت مصر تحكمها طبقة السيادة .. وهى طبقة كانت تفرض واقعها بملكية الأرض .. كل الأرض .. وكانت قد استطاعت عبر مئات السنين أن تضع لنفسها تقاليد ومظاهر اجتماعية ترفعها عن باقى طبقات الشعب .. وكانت تتوارث السيادة بتوارث ملكية الأرض .. إلى أن قامت الثورة فضاعت سيادة ملكية الأرض وتمزقت حتى لم تعد الأرض قادرة على خلق طبقة تمثلها .. كما أنها ثورة لم تعتمد على طبقة متألقة منظمة .. ولم تضع تقاليد ولا مظاهر اجتماعية مستقرة تكفى لحماية طبقة .. لم تضع إلا نظاما للحكم ينفرد الحاكم بالسيطرة عليه .. ولا تستطيع أى مجموعة أو أى فرد أن يشارك الحاكم فى سيطرته .. ليس لمصر حتى اليوم طبقة حاكمة .. ليس لها إلا حاكم واحد منفرد بنفسه .. وقد يصل فرد من الأفراد بشطارته أن يضع نفسه قريبا من الحاكم ويحظى بثقتة فيه واعتماده عليه .. وقد يصل أحد الأفراد إلى تحقيق صفقات مذهلة ترفعه إلى مستوى أصحاب الملايين .. ولكن كل هؤلاء لا يمثلون طبقة مستقرة من طبقات المجتمع المصرى .. ويقون دائما مجرد أفراد لا قيمة لهم .. والقريب من الحاكم قد يبعد ويصبح فردا عاديا من الغلبة لا يساوى شيئا .. وصاحب الملايين يعيش مههددا بأن يغضب عليه الحاكم يوما ويحرمه من ملايينه .. أو قد يهرب هذه الملايين إلى خارج مصر ويهرب معها .. أين الأفراد الذين كنا نردد أسماؤهم أيام الحاكم جمال عبد

الناصر .. ثم الأسماء التى ظهرت أيام أنور السادات .. لقد اختفت كلها .. ضاعت .. لأنها أسماء لأفراد لا يمثلون طبقة مستقرة تتوارث نفسها .. إلا فردا أو اثنين استطاعا أن ينتقلا من رضاء حاكم إلى رضاء الحاكم الآخر ..

وابتسم رضوان الدسوقى ابتسامة مرة وهو مستطرد فى تفسيراته السياسية التى تعود عليها إلى حد الإدمان منذ كان صبيا .. واستطرد يسائل نفسه عما يريده من ابنه .. لقد كان غبيا أو مغرورا بهمه وهو يطالب ابنه بأن يحصر نفسه داخل الطبقة الراقية العليا التى تعيش منتهى الرخاء والسيطرة الاجتماعية .. ويتعد مترفعا عن طبقة الغلبة التى لا تملك سوى الأحلام التى تدفعها إلى الثورة والانطلاق فى مظاهرات سياسية أو إصدار منشورات أو القيام بعمليات عنيفة يسمونها أعمالا فدائية .. إن هذا التفريق بين الطبقات ليس تفريقا واقعيا .. وقد يهرب أبناء الأغنياء من فكرهم بأن ينهاروا فى منتهى الانحلال والصرخة .. أو يكونوا من الغباء بحيث لا يقدرّون من الحياة إلا مظاهرها .. أما إذا سيطر عليهم فكر سياسى وطنى واقعى فسيجدون أنفسهم حتما مشتركين مع نفس فكر الغلبة .. إنه هو نفسه بعد أن أصبح مليونيرا يعترف بأنه لا يزال محتفظا بعقلية الغلبة .. كل ما تغير فيه هو مظاهر حياته .. لقد أصبح يقيم فى قصر بعد أن كان يقيم فى حارة .. وأصبح يضع نفسه فى سيارة فاخرة بعد أن كان لا يملك إلا أن يسير على قدميه فوق حذاء قديم .. والذى يفرق بينه وبين ابنه .. أن فكره كان يهرب به من التعرض للمصارحة الوطنية رغم إيمانه واقتناعه بها لأنه كان متعلقا بهدف أكبر .. وهو أن ينقل نفسه من بين الغلبة إلى أن يكون فردا ثريا واسع الثراء ..

ولكن ابنه وجد نفسه وقد ولد ثريا فلم يعد مضطرا إلى أن يهرب من فكره المرتبط بفكر الغلبة فعاش معهم أحلامهم وبدأ يساهم في عملياتهم السياسية الوطنية ..

ورغم ذلك .. يجب أن يجد لابنه طريقا ليعيش به حريصا على صيانة هذا الوضع الذى ولد فيه .. إن ابنه سيرته وهو يريد أن يطمئن إلى أنه سيصون ملايينه .. بل ويتمنى أن يستطيع أن يزيد عليها ملايين .. ولا يضيعها بانقياده إلى الغلبة ..

وقفز من جانب المائدة قبل أن يتم غداءه كأنها استقر على فكرة .. واندفع إلى غرفة مصطفى وهم أن يفتح الباب ولكنه وجده مغلقا بالفتاح فقرع عليه صائحا :

— افتح يا مصطفى .. أريد أن أتحدث إليك ..

ومرت لحظات كأن مصطفى لن يفتح له الباب .. ولكنه فتح له .. وكانت رأسه منكسة كأنه لا يريد أن يرى أباه .. ثم تركه يدخل وهو يدير ظهره له .

وجلس الأب على مقعد من مقاعد الحجرة كأنه قرر أن يبقى فيها طويلا قائلا :

— إن تعمدك الابتعاد عني لن يحل أى مشكلة ..

والفتت إليه ابنه قائلا فى عنف مهذب :

— إن المشكلة الوحيدة هى الإفراج عن زملائي الذين قبض عليهم وأنا معهم ومنهم .. وقد مرت إلى الآن ثلاثة أسابيع ولم يفرج عن أى واحد منهم ..

وقال الأب مستهينا :

— وماذا كنت تريدنى أن أفعل ..

وقال الابن فى حدة ساخطة :

— إنك صديق لرئيس الحكومة .. وقد استطعت بصداقتك له أن تخرجنى من السجن .. ووعدتنى بأنه سيفرج بعدى عن بقية زملائي ..

وقال الأب وهو ينظر إلى ابنه كأنه يشفق عليه من سذاجته :

— إن أى رئيس ليس له أى صديق .. كما تتصور معنى الصداقة .. إنما الرئيس لا يربطه بأى فرد إلا حاجته إلى التعامل معه .. وحاجتهم إلى التعامل معى ربما لا تساوى أكثر من الإفراج عن ابنى ولا تصل إلى حد الإفراج عن زملاء ابنى ..

وقال الابن وقد ارتفع صوته :

— إن قيمة تعاملك مع الحكومة لم تصل إلى حد صيانة كرامة ابنك بين الطلبة .. بل تركته يبدو كأنه قطعة من قمامة الزباله ألقتها فى الشارع .. ولعل ماما أبلتكت أنى ممتنع عن الذهاب إلى الجامعة .. أتدرى لماذا .. حتى لا أواجه الطلبة بفضيحة الإفراج عنى وحدى .. أى حتى لا أظهر بينهم كمجرد أحد أفراد زباله الحكومة ..

وقال الأب فى هدوء متحملا ثورة ابنه :

— إن امتناعك عن الجامعة أوحى إلى بفكرة .. وهى أن أرسلك لتتم تعليمك فى أمريكا ..

وصرخ الابن :

— لن أسافر .. وسأدخل الامتحان القريب ..

وقال الأب في تأكيد وهو يتسهم كأنه يتحائل على ابنه أن يهدأ :

— وأنا واثق أنك ستنتجح في الامتحان ..

وابتسم الابن وقد تخيل أن أباه يضمن له النجاح بأن يسعى بنفوذه لإنجاحه .. كل أبناء الرؤساء وأصحاب النفوذ ينجحون في كل امتحانات الجامعة دون أن يستوعبوا منها أى كلمة .. بل دون أن يتنازلوا ويواظبوا على تلقى دروسهم .. وأستاذ الجامعة الوحيد الذى اعترض على إنجاح تلميذ من أبناء الرؤساء طرد من الجامعة .. ولا يزال مطرودا حتى اليوم .. بل ظهرت شخصيات بين العائلة الحاكمة منحت شهادة الدكتوراه رغم أنها لم تكن تحمل أى شهادة جامعية قبل أن تصل عائلتها إلى الحكم .. وأبوه واثق أنه بتليفون واحد إلى المسئول عن الجامعة يستطيع أن ينتجحه في الامتحان إلى أن يأتى له بشهادة الدكتوراه ..

وقال الابن وكأنه يتحدث أباه :

— سأنتجح في الامتحان معتمدا على نفسى ..

وقال الأب ووجهه يتجهم غاضبا :

— أنا لم أقصد أن تعتمد على أنا في نجاحك .. ولكنى واثق في أنك تستطيع أن تنتجح في أى امتحان تريد أن تنتجح فيه .. ولذلك لم أكن أتاثر بما سبق أن رسبت فيه من امتحانات .. لأنى كنت أقدر أنك لا تريد النجاح .. ولكن بما أنك أصبحت تريده فستنتجح .. إنك مثل أبيك تنتجح في كل ما تريده .. وترفض أن تنتجح في أى شيء يفرض عليك ..

وهذا الابن قليلا ثم قال :

— لماذا تريدنى أن أترك مصر وأتم تعليمى في أمريكا ..

وقال الأب كأنه يغرى ابنه :

— إن أمريكا هى قمة العلم والتعليم ..

وقال الابن ساخرا :

— سأوفر عليك تكاليف القمة وأتم تعليمى هنا مع الغلابة ..

وقال الأب مبتسما :

— لقد انتقلت أنا نفسى إلى أمريكا .. وبدأت التفكير في إقامة

مكتب لنا هناك .. في شيكاغو ..

وبرقت الدهشة في عيني مصطفى وقال وهو مبجلق في وجه أبيه :

— ماذا تفعل في أمريكا .. إننى أفهم أن كل أعمالنا نقوم على

تمويل مشروعات .. أى أن حضرتك يا بابا مقاول تمويل .. كما

يوجد مقاول للتنفيذ .. ومقاول عمال .. ولكن مصر ليست في حاجة

إلى مقاول لتمويل مشروعاتها من أمريكا .. إن التمويل يتم مباشرة

بين الدولتين .. الحكومة الأمريكية تمد الحكومة المصرية بالدولارات

في شكل قروض أو إعانات بشرط أن تتولى هى إقامة هذه المشروعات

حتى تعود دولاراتها إليها أولا تخرج من سلطاتها ..

وقال الأب وهو يتسهم فرحا بأن ابنه يناقشه في موضوع جاد :

— إنهم في أمريكا لا يؤمنون بأن الحكومات تستطيع تنفيذ

المشروعات .. إنهم يقصرون اتفاقهم مع الحكومة على تمويلها

بالقروض والمعونات ولكن تنفيذ المشروعات التى تقوم على هذا

التمويل يجب أن تتولاه شركات خاصة .. حرة .. أى أنهم لا يتعاملون مع ما نسميه القطاع العام ولكنهم يصرون على التعامل مع القطاع الخاص .. وهذا هو النظام الاقتصادي في أمريكا نفسها .. أوروبا كانت عقلية الإدارة الأمريكية تمجد أن التعامل مع النظام الخاص أسهل في فرض سيطرتها عليه والاطمئنان إليه من التعامل مع القطاع العام التابع للحكومة فإنه معرض دائما للتأثر بالخلافات السياسية التي تطرأ على العلاقة بين الدولتين .. ولذلك فقد اضطرت الحكومة المصرية إلى توزيع الدولارات التي تمدها بها أمريكا على رجال القطاع الخاص الذين يستطيعون تنفيذ المشروعات .. وكثير من المشروعات الخاصة تحمل الآن برؤوس أموال القروض والمنح الأمريكية .. حتى شركات الطباعة والنشر التي تصدر كل ما يمكن أن يقرأه الشعب بدأ معظمها في استغلال الدولارات التي منحتها أمريكا لمصر في تجديد مطابعها وآلاتها وتطويرها حتى تصل بها إلى مستوى القمة العالمية .. بموافقة أمريكا طبعاً رغم ما يقال من أن الحكومة المصرية ليست مسئولة عن شركات النشر مسئولة مباشرة ..

وقال الابن مقاطعاً في سخط :

— أى أن أمريكا أصبحت اليوم هى المسئولة عن كل ما يقرؤه الشعب المصرى .. فالممول هو صاحب الحق الأول في تحديد ما ينشر ليقرأ ..

وقال الأب وهو لا يزال محتفظاً بفرحته بمناقشة ابنه :

— المهم هو قيمة التمويل .. وفى لندن وباريس تصدر الآن صحف عربية .. ومجلات ومنشورات رائعة تغذى العقل العربى

بمعلومات ودراسات راقية .. وكلها يعتمد أصحابها على تمويل خارجى .. ليس التمويل الأمريكى وحده بل تمويل متعدد المصادر .. بما فيها مصادر البترول العربى .. وقد يكون تمويل روسيا .. وهو اختلاف مصادر التمويل .. والفرق الأكبر والواضح بين هذه المطبوعات هو في قيمة التمويل الذى يحدد مستوى قيمة المطبوعات ومستوى قوة اجتذابها للقارئ ..

وهم مصطفى أن يقاطع أباه ولكن أباه صده مستطرداً قائلاً :

— دعنا في المهم .. إن المنافسة القوية الخطيرة القائمة اليوم في مصر هى المنافسة القائمة بين شركات القطاع الخاص ورجال الأعمال المستقلين ليصل كل منهم إلى رضا الحكومة حتى تمنحه جزءاً من مبالغ الديون والمعونات الأمريكية ليقوم بتنفيذ مشروع من مشروعاتها .. وأبوك ليس مجرد مقال تمويل .. كما تقول .. إنى لست مجرد بنك يسعى لجمع الإيداعات من رؤوس الأموال .. ولكنى أيضاً مقال تنفيذى تحققت على يدي كثير من المشروعات .. ولو أنى أكره وأرفض وصفى بأنى مقال .. بل إنى أرفض أن أوصف بأنى رجل أعمال .. إنهما صفتان تحدان مهنة تحيطها كثير من الشبهات والافتراءات .. وأفضل أن يعرفنى الناس كمجرد ابن من أبناء مصر يعيش في خدمة وطنه .. إن طلعت حرب لا يوصف بأنه مقال أو رجل أعمال .. بل إنه يعرف بأنه زعيم الاقتصاد الوطنى .. وأنا لا أنطلع إلى أن أكون زعيماً كطلعت حرب ولكنى أتمنى أن أعرف بأنى مجرد واحد من مريديه يستمد منه عبقريته .. وقد استطعت بعبقريتى أن أقنع الحكومة بأن تضع بين يدي ميزانية ضخمة من ملايين القروض والمنح الأمريكية .. ملايين الدولارات .. لتنفيذ

مشروع اتفق عليه بين الدولتين . . وهو مشروع مد خط سكة حديد يصل إلى اخر حدود مصر الغربية . . أى إلى أبعد من مرسى مطروح بعدة كيلومترات . . وهو مشروع قديم تعلم به مصر من عشرات السنين . . لأن خط السكة الحديد القائم حتى اليوم على هذه الناحية هو خط واحد منفرد لا يحقق ارتباط مصر بعضها ببعض من أولها إلى آخرها . . وأنا واثق أنى سحقق هذا المشروع . . وقد وجدت منذ البداية أنى يجب أن أكون على صلة بالادارة الأمريكية وأنى يجب أن يكون لى مكتب هناك يتولى استيراد الآلات والمعدات والخبراء والتفاهم مع المسؤولين . .

والابن يستمع إلى أبيه مركزا كل عقله ليستوعب ويفهم كل كلمة . . وسكت لحظة ثم قال كأنه يحدث نفسه :

— لعل مصر تفكر فى هذا المشروع كمشروع مدنى للخدمة الشعب . . ولكن أمريكا وافقت عليه كمشروع عسكري يوفر لها متطلبات السيطرة العسكرية على كل المنطقة . . حتى لو أخفت هذه السيطرة وراء مشروع يبدو كأنه مشروع برىء لتحقيق النهضة المصرية . .

وقال الأب وهو ينظر إلى ابنه فى إشفاق :

— إن كل مشروع مدنى عام يشمل التخطيط العسكري . . لو أقمنا كوبرى صغيرا على النيل ليمر عليه أهالى الضفتين . . فستمر عليه أيضا القوات العسكرية . . والمهم هو تحديد من له حق المرور . . هل هو حق قاصر على القوات المصرية أو هو حق أيضا للقوات الأمريكية . .

وسكت الابن برهة أخرى ورأسه قد أحنأها ثقل أفكاره . . ثم رفع رأسه قائلا فى تصميم :

— اسمح لى يا بابا أن أطلبك بأن تبعدنى عن مسئولياتك . . إن لى مسئوليات خاصة . . ولن أسافر إلى أمريكا . . لأن مسئوليتى تفرض على أن أبقى هنا . . إنى مقتنع بأن الجهاد يجب أن يبدأ فى الداخل حتى نصل إلى القوة التى نواجه بها الخارج . . نواجه بها التعامل مع أمريكا . .

وقام الأب واقفا من على مقعده وقد تجردت ابتسامته من الفرحة وأصبحت كأنها ابتسامة رجاء وتوسل :

— لقد عودتك على أن أتركك حرا فى مسئوليتك عن نفسك . . وكل ما أتمناه هو أن تستمر فى التفكير فلعلك تقنع نفسك باستكمال دراستك فى أمريكا . .

وقال الابن كأنه يحتفظ بشخصيته أمام أبيه :

— لن أقتنع . . فانى أحس كأنك تريد أن تبعدنى عن الحركة الوطنية التى أصبحت مقتنعا بها مع زملائى فى الجامعة . .

وقال الأب وهو لا ينظر إلى ابنه :

— إن الحركة الوطنية مفروضة على كل مصرى سواء فى الداخل أو الخارج . .

ثم عاد ينظر إلى ابنه وهو خارج من باب الغرفة قائلا بلهجة أمرة :



.. إن ما أريدته منك هو أن تعود وتواظب على تناول الغداء معي لتبادل المناقشة .. فإن هذا التبادل لن يحل أى مشكلة أو اختلاف فى الرأى بيننا ..

وقال الابن فى أدب كأنه عاد مستسلما إلى أبيه :  
.. حاضر ..

\*\*\*

## الفصل التاسع

وعاد مصطفى يجلس إلى مكتبه داخل غرفته يستذكر دروس ومقررات كلية الهندسة .. ويحاول أن يبعد عن فكره كل ما سمعه من أبيه حتى يتفرغ للمذاكرة .. إنه مصمم على أن ينجح فى الامتحان .. إنه لا يمكن أن يترك أبى تذاكر بيننا هولاء مترفع عن المذاكرة حتى سبقته فى سنوات الدراسة وأصبحت فى الفصل الثالث بيننا هو لا يزال فى الفصل الثانى ..

وكان قد تعود أن تقفز ابتسامة حلوة إلى شفثيه كلما تذكر أبى .. لا شك أنها كانت بشخصيتها دافعا قويا إلى هذه الحياة الجديدة التى يحياها وهذا الفكر الجديد الذى أصبح مسيطرا عليه .. لقد كانت أبى هى الدافع الأقوى الذى عرضه لأن يعيش بشخصية الطلبة الغلابة ويتعرض لما يتعرضون إليه .. فتقع على رأسه ضربات البوليس .. ويقبض عليه ويدخل السجن .. لقد جردته من شخصية ابن المليونير رضوان الدسوقى ونقلته إلى شخصية قائمة بذاتها .. شخصية أقنعت بنفسه وزودته بقوة الذاتية .. وكان سعيدا بأن وجد شخصيته .. إلى أن أفرج عنه وخده من بين زملائه الذين قبض عليهم معه .. واكتشف أنه لا يزال خاضعا لشخصية ابن المليونير .. وكل شىء بدأ يتغير من حوله .. حتى أبى بدأت تتغير ..

وابتسامته التى تقفز إلى شفتيه اليوم وهو يذكروها ليست حلوة ..  
 إنها ابتسامة مرة .. كأنها ابتسامة مهزوم .. وكانت نهى هى الوحيدة  
 بين أفراد شلة الأصدقاء التى جرى إلى لقائهما بعد الإفراج عنه ..  
 وأبلغها مطالب زملائه الذين لا يزالون فى السجن .. وأقنعها بأن  
 تكون نائبة أمين صندوق الحركة الوطنية وأعطاها المبلغ الذى كان  
 متبقيا معه من حساب الحركة .. ثم طلب منها أن تزوده بالمحاضرات  
 الدراسية التى تلقى فى غيابه لأنه قرر ألا يدخل الكلية إلا إذا أفرج  
 عن زملائه .. وربما كان هناك دافع أقوى لأن يجرى للقاءها .. وهو  
 شوقه إليها .. إلى الراحة التى يتمتع بها وهو بجانيها .. ومتعته  
 بمروره على كوز الذرة المشوى الذى يفتح شهيته ..

وكان قد اتفق معها فى لقاءها الأول على أن يلتقيا بعد غد تحت  
 كوبرى الجامعة .. وقد جاءت فعلا إلى لقاءه وحملت له بضعة أوراق  
 محاضرات استطاعت أن تنقلها له .. ودار بينهما حديث سريع ..  
 بضع كلمات مرصوفة لا تزوده بشيء منها .. وابتناسمتها الواسعة  
 التى تفيض بحيويتها منكمشة فى ابتسامة مفتعلة .. وكانت متعجلة  
 كأنها لا تطيق بقاءها بجانيه داخل سيارته .. واعتذرت بأنها  
 مشغولة .. وقبل أن تتبعد عنه أراد أن يحدد موعد لقاؤها التالى ..  
 ولكنها رفضت .. وقالت أنها ستصل به تليفونيا لتحديد موعد اللقاء  
 يعد أن تعد له أوراقا أخرى .. ولم يستطع إلا أن يتركها تتبعد عنه ..  
 كأنه بطاقى سراحها ولحها تتبعد كأنها تجرى هربا منه ..

ومر أسبوع كامل دون أن تتصل به تليفونيا لتحديد له موعد  
 لقاء .. وهو يقاوم أن يذهب إليها هو ويلتقطها من أمام محطة  
 الأتوبيس .. إنه يريد أن يحتفظ بكرامته ولا يضعف أمامها .. إلى أن  
 اتصلت به والتقىا كعادتهما .. تحت الكوبرى .. ولكنه كان أيضا لقاء

فاترا سريعا .. وسلمته بعض أوراق المحاضرات .. ولم تكلف  
 نفسها أن تطلعه على أخبار الكلية .. أو ترحب بالأسئلة التى  
 يسألها .. وتركته بعد أن قالت له من خلال ابتسامة ساخرة وليست  
 غاضبة :

— لم يفرج عن أى أحد من الأصدقاء .. هل أبوك فى صحة  
 جيدة ..

وجرت هاربة ..

ورغم ذلك فقد كان يحس بأنها لا تزال مرتبطة به ..  
 ولولا ارتباطها لما جاءت إليه بحجة تزويده بأوراق المحاضرات  
 الدراسية .. إنه يؤكد لنفسه أنها تراه لأنها لا تستطيع أن تقاوم شوقها  
 إليه .. وهو شوق يؤكد له أنها تحبه .. رغم ظروفها ورغم أنها متزوجة  
 إلا أنها لا تستطيع أن تقاوم مجرد المتعة ببقائه ..

وقد مر الآن أكثر من أسبوعين دون أن تعود للاتصال به حتى  
 تحدد لقاء آخر .. وهو لا يزال معتزا بنفسه ويرفض .. وهو منذ  
 البداية لا يعتمد على الأوراق الدراسية التى يمكن أن تحملها إليه وهو  
 يستعد للامتحان .. ربما كانت هذه الأوراق مجرد حجة افتعل أن  
 يطلبها منها ليبرر لقاءهما .. وهو منذ البداية يعتمد على أساتذة كلية  
 الهندسة الذين اتفق معهم على أن يترددا عليه فى البيت فى دروس  
 خصوصية .. وكل منهم يبذل مجهودا كبيرا معه فى إلقاء درسه ..  
 اهتماما لم يكن يحظى به وهو أمامهم داخل مدرجات الجامعة .. وكل  
 منهم يبدو فخورا بأنه يدرس لابن المليونير رضوان الدسوقي .. أو كان  
 كل منهم سعيدا بأنه لم يجادل به أبدا فى قيمة الأتعاب التى يريد  
 لنفسه .. بل إن كلا منهم كان يوصيه باستدعاء أستاذ آخر من زملائه

في الجامعة حتى يلقي عليه درسا خصوصيا في موضوع آخر .. كأن  
هيئة التدريس في الجامعة قد اكتشفت كنزا تقسمه بين أفرادها ..  
السادة الأساتذة حملة الدكتوراه ..

وقد أصبح مصطفى يعتمد الحرص على تناول الغذاء مع أبيه ..  
وغالبا ما يكون لقاء صامتا أو كلاما عابرا يشمل موضوعات عادية  
عائلية كأن كلا منهما لا يريد أن يطرق أى موضوعات وطنية  
أو سياسية .. ولكن مصطفى يواجه أباه كل يوم وفي عينيه سؤال  
صامت .. هل أفرج عن زملائي .. وهو يقدر أن والده لا شك يفهم  
هذا السؤال ولكنه يتجاهله ولا يجيب عليه .. وأبوه يسأله بين يوم  
 وآخر :

— هل فكرت .

ويرد عليه مصطفى في كلمة عابرة :

— أحيانا أفكر .. ولكنى لا زلت مصمما على رأى ..

إلى أن مرت ثلاثة أسابيع .. مضى على زملائه في السجن أكثر  
من شهر .. ودق التلفون .. وكانت نهي تحدد موعدا للقاء .. تحت  
الكوبرى .. وهو يطير من الفرحة .. إنها لا تستطيع أن تستغنى عنه  
أبدا مهما قاومت شوقها إليه ..

وجاءته نهي وهى تبدو كأنها عادت إلى أيام زمان .. ابتسامتها  
الواسعة تراقص بين شفتيها .. وانطلاق حيويتها .. ولا تكف عن  
الكلام .. إنها تروى له أخبار الكلية .. وتحكى له عن أخبار  
عائلات الأصدقاء الذين لا يزالون في السجن وتوالى زيارتهم وتشارك  
معهن في إعداد مطالبهم التى يرسلونها إليهم داخل السجن ..

وحكايات بعضها كالتكات تثير الضحك .. إلى أن استراحت  
الابتسامة الواسعة فوق شفتيها وقالت فى هدوء :

— لقد أصدرنا منشورا بدأنا توزيعه .. نطالب بالإفراج عن  
محمى الدين وبقيّة الزملاء ..

وفتحت حقيبتها وأخرجت كمية من المنشورات ناولتها  
لمصطفى .. وقرأ مصطفى المنشور بسرعة وملاحمه تضح بالحماس  
وقال :

— إنها كلمات رائعة .. صارخة .. مقنعة .. وكان يجب أن  
يصدر هذا المنشور ويوزع منذ أسابيع ..

وقالت نهي من خلال ابتسامتها الهادئة :

— لقد قررنا أن نصدر منشورا آخر .. وفورا .. ولكن نائبة  
أمين الصندوق أصبحت تشكو الإفلاس وفي حاجة إلى أن يزودها  
أمين الصندوق بمبلغ آخر ..

وقال مصطفى دون أن يفاجأ بالمطلوب منه وهو لا يزال ممسكا  
بالمنشور فى يده :

— من كتب هذا المنشور ..

وقالت نهي فى تردد :

— نحن ..

وعاجلها مصطفى قائلا :

— من منا ..

وقالت نهي وهى تحاول أن تعود وتتسع بابتسامتها كأنها تحاول أن  
تغريه بها :

— كلنا واحد ..

وصاح مصطفى :

— إنى أسألك عن اسم كاتب المنشور .. وسأسألك عن كيف  
طبعتموه .. وكيف توزعونه .. وسأسألك عن كل التفاصيل ..

وقالت نهي مبتسمة :

— إنها أسرار تعاهدنا ألا نبوح بها ...

وصاح :

— أسرار حتى على .. ألسنت أمين صندوق الجماعة ؟

وقالت وصوتها ينبض بالسخرية :

— إننا نعتبر أن أمين الصندوق لا يزال في السجن ..

ونظر إليها في دهشة ساخطة وقال :

— حتى الأخبار وكل التفاصيل يمكن أن تصل إلى

المسجونين ..

وقالت ساخرة وكأنها تحمل مناقشة ثقيلة :

— إنك لست داخل السجن .. ولكنك سجين خارج

السجن .. سجين هارب .. ولا تدري أين تختبئ ..

وصاح غاضبا :

— إنى لست هاربا منكم .. وإن كنت أكتفى ببقائك ..

وأنتظر الإفراج عن زملائي حتى أعود إلى الحركة الوطنية .. ومن

حقى في فترة الانتظار أن أعرف كل التفاصيل ..

وقالت نهي ضاحكة :

— حقك كممول تدفع من جيبيك ..

وعاد يقول ساخطا :

— لا يهمنى ما أدفعه .. ولكن كل ما يهمنى هو أن أستكمل  
إحساسى بالمسئولية .. وهى مسئولية لا تتحقق إلا إذا كنت أحملها  
معكم .. ونعيش كلنا في سر واحد .. إن ما تخفونه عن البوليس  
لا أقبل أن تخفوه عنى .. وإلا كنت بينكم متهمها بأقذر تهمة ..

ووضع يده في جيبه وأخرج مبلغا من أوراق النقد وعاد بكلماته  
الساخطة :

— اسمعى .. هذه مائة جنيه .. لا يهمنى أن أعطيها لك  
أو أرميها في الشارع .. فإذا لم تصارحيني بكل التفاصيل وبكل  
الأساء فسألقها في الشارع ..

وقالت في إصرار :

— لن أصارحك إلا بما اتفقنا على أن أصارحك به ..

وهذا قليلا وقال في صوت مبحوح :

— كأنكم اتفقتم على طردى من بينكم ..

وصاحت كأنها ترجوه أن يصدقها :

— لا .. كيف نظردك وأنا ألجأ إليك لتساهم معنا ..

وقال ساخرا :

— ربما كانت الشلة تجازف بإيقادك بنى .. على أمل أن أشفق

علك ولا أبلغ الحكومة عنك .. ويظنوا هم في أمان .. أمان مني  
ومن البوليس ..

ثم رفع يده بالجنهات التي تحملها ولوح بها أمام عيني نهى  
قائلا :

— حتى لا تتصورى أنى أطالب بأن أكون معكم نظير ما أدفعه  
للحركة .. وبها أنكم تبعدونى عنكم فلن أعيد هذه الجنيهات إلى  
جيبى .. سألقياها في الشارع .. وأجرى أنت ورائها لتجميعها كأنك  
وجدتها صدقة حتى لا يكون لى فضل تسليمها لك .. للحركة  
الوطنية ..

وقذف بالجنهات من نافذة السيارة لتطير في الهواء وتسقط في  
الشارع ..  
وصرخت نهى :

— إن الحركة ما دامت في سبيل الوطن فلن تذلل نفسها أبدا أمام  
الجنهات ولو وصلت إلى الملايين .. إن عليك أنت أن ترجونا وتتوسل  
إلينا حتى نقبل جنهاتك ونشرها بمساهماتها في حركتنا .. وهو شرف  
لك لا يمنحك أى حق .. إلا إرضاء ضميرك الوطنى .. لو كان لك  
ضمير ..

وقفزت من داخل السيارة تجرى مبتعدة عنه ..

وأطلق سيارته في سرعة مجنونة مبتعدا عنها ..

والجنهات على الأرض في انتظار اليد التي تصل إليها ..

\*\*\*

وزوبعة من أفكار مصطفى تعصف في رأسه .. ولكنه لا يخطيء  
نفسه ولا يلومها .. لقد كان على حق .. إنه لم يكن يدفع تبرعا  
للحركة الوطنية .. ولكنه كان يدفع إحساسا بمسئوليته عن المساهمة  
في الحركة .. إنه لا يساوى أى شيء بجنهاته .. ولكنها تساوى  
بقدر ما يذل من فكره ومن المجازفة بنفسه في سبيل وطنه ..

ورأوته ابتسامة عابرة وهو يتصور كأنه نسخة طبق الأصل من  
أبيه .. إن أباه يعتبر كريما في توزيع التبرعات والخيرات .. في متتهى  
الكرم .. ولكنه لا يدفع مليما واحدا إلا إذا اطمأن إلى مصير هذا  
المليم .. حتى أنه لا يتبرع إلى أى جمعية خيرية إلا إذا قام بدراستها  
واستكمل معرفة كل خباياها وأسرارها وتضامن مع أعضائها وعرفهم  
واحدا واحدا وعرف ما يقوم به كل منهم في تحقيق أهداف الجمعية ..  
وكثيرا ما يرفض المساهمة أو التبرع لأنه لا يطمئن إلى مصير الأموال  
التي يتبرع بها .. خصوصا إذا كان التبرع لهيئة حكومية .. إنه  
لا يثق في الضمائر الحكومية رغم أنه يتعامل معها .. فإذا كان  
مصطفى قد توقف عن أن يدفع للحركة الوطنية التي يقوم بها  
الطلبة .. فلاهم لم يعودوا يطمثون إليه .. ولا يحاولون إقناعه  
بكشف أسرارهم ففقد هو الآخر اطمئنانه إليهم .. لقد طردوه ..  
وإن كانوا لا يزالون يريدون أن ينالوا جنهاته من بعيد .. ولكنه يحس  
بأنه لو استجاب لهم فكأنه يلقي بجنهاته في هواء مجهول .. وقد  
القها في الهواء فعلا بدلا من أن يلقيها في يد نهى ..

ودخل مصطفى على أبيه وهو متجههم الوجه غارق في الغيظ الثائر  
وقال فوراً :

— لن أدخل امتحان الكلية ..

أمريكا فأنا متأكد من أنك ستنجح هناك في أى امتحان .. وتستطيع  
أن تسافر خلال هذا الأسبوع .. سأسافر معك ..

\*\*\*

ومصطفى الدسوقي جالس بجانب أبيه رضوان الدسوقي على  
مقاعد الدرجة الأولى في الطائرة التي تحملها إلى أمريكا ..

وكانت قد مرت أيام هدأت فيها نزعة الغيظ النائر التي كانت  
تسيطر على كيان مصطفى .. ولكن أفكاره لا تزال تنبض بالمرارة  
ولا تستطيع أن تتحرر خارج الموضوع الواحد الذي تدور فيه ..  
موضوع أيامه مع أصدقائه الطلبة الغلبة الذين كانوا قد جدوا على  
حياته ونقلوه من فراغ عمل ومزهد يعيش فيه إلى دنيا زاخرة بالمسؤوليات  
الكبرى .. مسئولية المستقبل الوطنى كله .. مسئولية حمل مصير كل  
الناس .. كل الشعب .. وقد هزم في هذه الدنيا .. لا .. لم يهزم  
بشخصيته وبطبيعته الذاتية .. ولكنها هزيمة الكيان الذى ولد به وفيه  
دون أن يختاره .. كيان الأغنياء .. إنه كالرجل الوسيم الذى  
لا فضل له في وسامته .. أو كالرجل القبيح الذى لا ذنب له في  
قبحه .. ولكن هكذا قد ولد كل منهم .. وهو أيضا ولد هكذا ..  
أحد أفراد مجتمع منتهى الثراء .. دون أن يكون قد اختار لنفسه هذا  
المجتمع .. بل إنه لم يكن يفرق بين حاله وحال أصدقائه الغلبة ..  
وكان يعيش بينهم كأنه يعيش دنيا طبيعية خلقها الله وجمع فيها بين  
السادة الأثرياء والغلبة الخاضعين للسيادة .. دون أن يستصع الثرى  
أو الغلبان الاستغناء عن الآخر .. إنها دنيا واحدة .. وقد كان  
متجاوبا منتهى التجاوب مع الغلبة في هذه الدنيا .. وكان يحس أن

وقال أبوه في دهشة :

— لماذا ..

وقال كأنه يستغيث به :

— لأننى سأسافر إلى أمريكا ..

وقال الأب وهو لا يزال دهشا :

— لماذا لا تسافر بعد الامتحان ولم يبق عليه إلا أسابيع

ومصطفى ينظر إلى أبيه كأنه مغناظ منه .. لقد كان أبوه يلح في  
اختطافه من بين طلبة الجامعة المصرية ليلقى به بين طلبة إحدى  
جامعات أمريكا .. فلماذا يخفف من إلحاحه الآن ويطلب منه أن  
يستمر في الجامعة المصرية حتى ينتهى من الامتحان .. وربما كانت  
العقلية التجارية المسيطرة على أبيه لا تريد أكثر من أن تستفيد من  
نفقات تعليم ابنه طوال العام بأن يحصل على شهادة نجاحه في  
الامتحان ..

وقال مصطفى في عنف :

— إنه امتحان لا يفيدنى ولست في حاجة إلى النجاح فيه ..  
مادمت سأنتقل إلى أمريكا وأمتحن هناك .. فمتى أسافر؟

وقال الأب في فرحة كبيرة كأنه يزغرد :

— إنك كما أقول عنك دائما .. لا تعرض نفسك لامتحان  
وتنجح فيه إلا إذا أردت .. ولا يمكن أن تنجح في امتحان مفروض  
عليك لمجرد استكمال مظهر النجاح .. ومادمت تريد الآن السفر إلى

الغلبة أيضا متجاوبون معه .. إلى أن حدث وأفرج عنه دون الفقير الغلبان .. فلا يمكن أن يعتبر هذا حقا .. إنه سيطرة ظلمة تفرضها طبقة الأثرياء .. وهذا صحيح .. ولكن ما ذنبه هو إذا كان قد ولد هكذا .. من الأثرياء .. بل إنه هو نفسه لم يكن يتمنى أن يفرج عنه دونه الغلبة .. كان يتمنى أن يبقى معهم يعاني ما يعانون إلى أن يحققوا الهدف الأكبر للحركة الوطنية .. وإن كثيرا من زعماء الحركات الوطنية كانوا من كبار الأثرياء .. بل إن زعيم الحركة الماركسية التي ترفض الثراء وتطالب بالمساواة في الفقر يعتبر من الأثرياء .. ومن سبقه كان أيضا من الأثرياء حتى كان يسمى « الباشا الأحمر » .. أى أن الثرى يمكن أيضا أن يكون ماركسيا .. ولو أنه لم يظهر من بينهم من فرض الماركسية على البلد فعلا .. فقد كان ماركس نفسه فقيرا غلبانا .. ثم ما هو وضع أبناء زعماء الثورة الذين ماتوا ولا يزال الطلبة يهتفون باسمهم .. إنهم كلهم من أصحاب الملايين .. يبدأ الزعيم بقيادة الثورة وهو غلبان إلى أن يملك السلطة ثم يموت وقد ترك أولاده كلهم من أصحاب الملايين .. وهو مجرد واحد من هؤلاء الأبناء وإن كان أبوه لم يكن يسعى إلى الزعامة ولا يسعى حتى اليوم إلى تحمل مسؤولية القيادة الوطنية .. ولكنه ثورى من جيل الثورة .. فلماذا طرده زملاؤه الغلبة من بينهم بعد أن أفرج عنه وحده .. إنهم أغبياء .. فقد كان يعد نفسه بعد خروجه من السجن لمزيد من التطرف والمجازفة بنفسه في الحركة الوطنية حتى يعود إلى السجن .. وكانوا يستطيعون في هذه المرحلة أن يتمسكوا بصداقته أكثر حتى يستغلوا ملايينه في تمويل الحركة بدلا من أن يتركوها لآبيه يستغلها وحده في تحقيق أهدافه الشخصية .. لقد كانوا أغبياء عندما طردوه من بينهم .. كانوا ضحايا الشعارات التي ترفض الواقع دون أن تحقق

واقعا آخر .. ولكن .. من يدري .. ربما كانوا على حق في طرده من بينهم .. ربما لم يكونوا بخافونه .. ولكنهم يخافون أباه وهو يحاول أن يبعد ابنه عنهم ..

وقر ابتسامة مرة على شفتى مصطفى وهو يتذكر نبي .. لقد كانت الشخصية الوحيدة التي ظهرت في حياته حتى اليوم وتمده بهذه الراحة الكاملة .. وهذا التعلق بأمال كبيرة .. كلما التقى وجهه بوجهها .. رغم أنه ثرى وهى غلبانة .. وهو متأكد أنها كانت متعلقة به هى الأخرى .. ربما كانت تحس بنفس الراحة وتتعلق وهى بجانبه بنفس الأموال .. وإذا كانت قد بدأت تتباعد عنه بعد أن أفرج عنه فقد كان يحس بأن شوقها إليه يربطها به .. ولكنها كانت أيضا ضحية الشعارات في تمسكها بتفانيها في خدمة الحركة الوطنية كما يصورها لها شلة الأصدقاء .. حتى اضطرت أن تضحي بكل عواطفها عندما أصبح عليها أن تختار بين الاستسلام له أو الاستسلام لشلة الأصدقاء المجاهدين تحت ضغط إحساسها الدائم بأنه غنى ابن المليونير وهى الغلبانة ابنة غلبان وزوجة غلبان .. وقد استسلمت للغلبة وتركت جنبها ته تطير في الهواء .. وطردته وطردت نفسها من دنياه .. ترى هل سيجد في أمريكا فتاة توفر له كل هذه الراحة وكل هذه الآمال مما كانت توفره له نبي .. وكان والده رضوان الدسوقي لا يكف عن الكلام ولكنه لم يكن يعتمد صد أفكاره ليتبع ما يقول .. إلى أن سمعه قائلا :

— إن أمريكا هى المستقبل ..

وانطلقت في ذاكرة مصطفى فورا كلمات الهتاف الذى كان يهتف به الطلبة خلال المظاهرات .. « يا أمريكا لى فلوسك .. بكره



